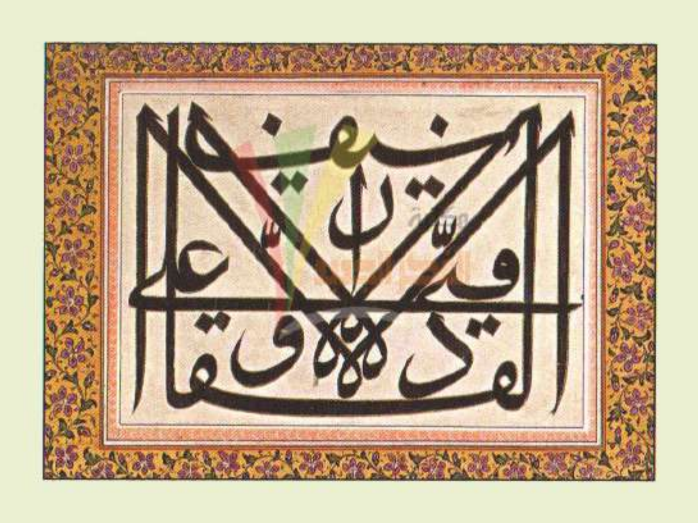
العفيف الأخضر

إصلاح الإسلام:

بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان





منشورات الجمل

العفيف الأخضر، إصلاح الإسلام: بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان


مكتبة
الفكر الجديد

العفيف الأخضر

إصلاح الإسلام:

بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان

حاوره:

ناصر بن رجب و لحسن وريغ

منشورات الجمل



ولد **العفيف الأخضر** في عائلة فلاحين فقراء في شمال شرق تونس سنة ١٩٣٤. والتحق بجامعة «الزيتونة» الدينية («أزهر تونس»)، ثم بكلية الحقوق. ومارس مهنة المحاماة بين ١٩٥٧ و١٩٦١، ثم تخلّى عن هذه المهنة وسافر إلى باريس في ١٩٦١، قبل أن يلتحق، مع يساريين آخرين، بنظام الرئيس أحمد بن بلا غداة إستقلال الجزائر. وانتقل إلى الشرق الأوسط في العام ١٩٦٥، وتنقّل بين عمّان وبيروت حيث طبع أهم كتبه التي كان محررها «نقد الفكر الإسلامي التقليدي». غادر العفيف الأخضر بيروت محزوناً بعد اندلاع الحرب الأهلية، وبعد أن صدم أصدقاءه اليساريين بموقفه الرافض لهذه الحرب، والرافض لكل مبرّراتها «التقدمية». فقد هاله أن اليسار اللبناني لم يدرك أنه كان يسهم، بدون وعي، في تحطيم الحصن الوحيد للحرية في العالم العربي «الغبي والمستبدّ». عاش في باريس منذ ١٩٧٩، ويكتب لصحيفة عربية، ويحاضر أحياناً في القاهرة أو يشارك في نقاشات تلفزيونية في محطات فضائية عربية، وتوفي فيها ٢٠١٣. من كتب العفيف الأخضر: **التنظيم الحديث**، دار الطليعة، ١٩٧٢؛ **الموقف من الدين**، دار الطليعة، ١٩٧٣. صدر له عن منشورات الجمل: **من محمد الإيمان إلى محمد التاريخ**، ٢٠٠٤؛ **إصلاح العربية**، ٢٠٠٤؛ رسائل تونسية، ٢٠٠٤.

العفيف الأخضر: **إصلاح الإسلام: بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان**

الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



فهرس



سياسي وفكري شجاع يقرر دراسة وتدريس الإسلام بعلوم الأديان.

علوم الدين الإسلامية القديمة تجاوزها التقدم العلمي. وحدها علوم الأديان الحديثة قادرة على إصلاح الإسلام. وهي مثلاً لا حصراً: تاريخ الأديان المقارن، سوسيولوجيا الأديان، علم نفس الأديان... إلخ. مبادئ هذه العلوم كونية، إذ إنها أصلحت الأديان الأخرى، كل ما تحتاجه في الإسلام هو تطبيق خلاق لمفاهيمها ومناهجها على دراسة الإسلام وشخصياته وتاريخه.

تقدم إضاءة نفسية لفهم بعض الرموز الدينية؛ الجنة مثلاً هي، كما قال فرويد، رمز لرحم الأم، الذي أقام فيه الجنين يأتيه رزقه رغداً، والنار هي ذكرى الصدمات التي كابدها الطفل، منذ صدمة الولادة إلى صدمة الختان مروراً بالباقي. والشعائر، كالوضوء للصلاة، يمكن تفسيرها باضطرابات الوساوس القهرية، التي ترغم المصاب بها على غسل يديه أكثر من 100 مرة في اليوم. من وظائف علوم الأديان، جعلُ العلاقة بين الدين والإنسان شفافة بلا ألغاز تستعصي على التفسير العقلاني والعلمي.

تستعرض نماذج من اللامعقول الديني، المطلوب تخليص الأجيال الطالعة منه، كـ«تفخيذ الرضيعة» أي تدليك الراشد لفرجها بقضيبه، لأنه تزوجها «على سنة الله ورسوله»، فقط



حتى يصبح مسموحاً له شرعاً رؤية أمها بلا حجاب! كيف ستتخلص هذه الأجيال من هذا اللامعقول الديني المرعب؟ بالعقلانية الدينية المتناغمة مع جميع مكاسب الحداثة العلمية والتكنولوجية ومع قيم حقوق الإنسان وحقائق عصرنا.

أحد الرهانات الكبرى لإصلاح الإسلام، هو توفير الشروط، خاصة الدينية، لميلاد الفرد المستقل، الذي يختار قيمه ونمط حياته وتدينه بنفسه، على أنقاض العضو الذائب في الأمة، قيمه، نمط حياته وتدينه نسخة طبق الأصل من مثيلاتها السائدة في الأمة. هذا العضو المذوّب في الأمة هو الذي تحتاج إليه منظمات الإرهاب الإسلامي، لتحوله إلى صاروخ موجّه، لهز استقرار بلدانها أو لهز استقرار العالم.

الانحطاط كان هزيمة العقل في اليونان أمام الأسطورة، التي احتل بها المنشدون «لاجورا [= الساحات العامة]»، على أنقاض الجوارات الفلسفية التي كانت تدور فيها؛ والانحطاط في الإسلام، هو هزيمة العقل الاعتزالي والفلسفي أمام هجمة اللامعقول الديني، الذي مثله المحدّثون، الذين كان شعارهم قول الترمذي، تلميذ البخاري: «من أصاب في القرآن بالرأي [= العقل] فقد أخطأ ومن فسر القرآن بالرأي فقد كفر». لماذا؟ لأن عليه أن يفسر القرآن ليس بالمعقول بل بالمأثور: الحديث. منذ منتصف القرن 11 م، وخاصة منذ بداية القرن 12 م، طردت «العلوم الدخيلة»، أي العلوم اليونانية كالمنطق والفلسفة والرياضيات والموسيقى، واحتلت مكانها العلوم الشرعية!




مكتبة
الفكر الجديد

الطفل والمراهق بحقائق الجنس العضوية والنفسية، لوقايته من السقوط ضحية القيل والقال الجنسي. ومن بعض ضحاياها من المشاهير: من العرب، الإمام الشافعي، المعري وخليل جبران؛ ومن الأوربيين، سبينوزا، كانط، نابليون وبودلير؛ أما ضحاياها من عامة الناس، خاصة في أرض الإسلام، فيعدون بعشرات الملايين!

ربما، لأول مرة كُسر المسكوت عنه الجنسي لكنه لا يزال في حاجة إلى مزيد التكسير، بالتحيل العلمي، وبممارسة الحب بين الراشدين الراضين شرط أن تكون واثقة من نفسها: أي لا تقرأ حساباً لقال الدهماء وقيلهم. الدهماء، هم جميع أولئك الذين يدافعون عن المحرمات الجنسية، الدينية والتقليدية، اللامعقولة؛ ويحرمون اقتحام بوابة الممنوعات المضادة لغرائز الحياة، مهما كانت ألقابهم الدينية أو الجامعية. وهم كثيرون نظراً للغياب المزدوج: غياب إصلاح الإسلام وغياب إصلاح التعليم.




مكتبة
الفكر الجديد

مقدمة الطبعة الأولى

قرأنا مقال العفيف الأخضر «لماذا إصلاح الإسلام» الذي نشر في الأوان قبل شهور وتوقعنا أن يكون الأول من سلسلة مقالات مخصصة لإصلاح الإسلام كما أوحت لنا بذلك نبرة المقال. انتظرنا بفارغ الصبر شهوراً لكن بلا جدوى. بعد رحيل الفيلسوف المغربي الكبير د. محمد عابد الجابري فجأة فكرنا فوراً في العفيف الأخضر، أطال الله عمره، ومشروعه لإصلاح الإسلام. اتصلنا به واستوضحناه عن توقفه عن مواصلة مقالات إصلاح الإسلام، فاتضح أن المانع صحي يتعلق بيده اليمنى التي يكتب بها. وليس له من يملي عليه. طلبنا منه حديثاً مطولاً، يلخص أفكاره الأساسية عن إصلاح الإسلام، فرحب بحماس وتمنى لو أن الأحاديث معه في هذا الموضوع تتواصل ليأسه من إنجازه بطريقة أخرى، بعد أن يئس من توظيف سكريتير حتى بنصف وقت. فكان هذا الحديث المنشور هنا على ست حلقات، نقدمها لعامة القراء وللباحثين المهتمين بموضوع إصلاح الإسلام الخطير. وشكراً للأستاذ العفيف الأخضر شفاه الله على هذا الحديث المفيد. ونطالب وزراء التعليم في الوطن العربي دراسة مقترحاته



وإدراجها في برامج التعليم الديني، لتحقيق الانتقال مما يسمّيه مدرسة اللامعقول الديني إلى مدرسة العقلانية الدينية الإسلامية، اللائقة بديننا الحنيف في القرن الواحد والعشرين.

ناصر بن رجب، باحث ومترجم تونسي
لحسن وريغ، سكريتير تحرير الأحداث المغربية



مقدمة الطبعة الرقمية الثانية:

الانتقال من الإيمان الأعمى إلى الإيمان كرهان

العفيف الأخضر

سأطرح سؤالين الأول: لماذا هذه الطبعة الثانية المنقّحة والمزيّدة؟ كنت أتوقع أني سأتمكن، في حوارت لاحقة من مواصلة هذا الحوار، لتحليل المسكوت عنه في الدين والجنس؛ في الدين، حولت المسكوت عنه إلى مُتحدّث فيه بما فيه الكفاية؛ أما في الجنس لم أحول المسكوت عنه إلى متحدث فيه إلا بتعريف الحد الأدنى. كان لا بد من حلقة خاصة بالتربية الجنسية العلمية، لتصفية حساب التربية الجنسية الدينية والتربية الجنسية البرية، اللتين تنتهكان مبادئ التربية الجنسية العلمية بفظاظة. وهكذا تُلحقان أذى فادحاً بحياة أجيال الغد الجنسية. وقد أضفت هذه الحلقة في هذه الطبعة. مواصلة الحوار لم تتم لعدة أسباب، أحدها وأهمها، تقديم الصحفيين، اللذين اتصلا بي، أعذاراً واهية لعدم إعادة الحوار إليّ بعد تسجيله، لمراجعته وتنقيحه قبل نشره؛ فالاستشهادات من الذاكرة تحتاج إلى تصحيح، وبعض المفاهيم تحتاج إلى تدقيق؛ الحوار الشفوي غير كاف لذلك. تجربة الحوارات أفقدتني الثقة بها؛ الصحفيون الذين حاوروني،



باستثناءات قليلة، راقبوا خطابي، وشوهوه وقوّلوني حماقات لم أقلها وما كان من الممكن أن أقولها! الصحفيان أقسما لي بجميع آلهتهم، بأنهما لم يفعلا مثل الآخرين. لكن «الآخرين» أقسموا أيضاً، لكنهم سرعان ما حنثوا بقسمهم وخانوا فكري. ليس طبعاً عن كراهية، بل عن حب مفرط «ومن الحب ما قتل»؛ مثلاً، سيد محمود، في الأسبوعية «الأهرام العربي»، صدّر الحلقة الأولى من حديثي ـ حديثه هو بالأحرى، الذي قال فيه على لساني ما ضاق به صدره وتلجج به لسانه: «أما الماركسية، لأنها يهودية لم أقترب منها»! بل ألف نقطة تعجب واستغراب. أرسلت «1000 كلمة» تصحيحاً لتقوّلات الحلقتين، لكن كالعادة لم تنشر! أما حسن بن عثمان، ودائماً عن حسن نية «وحب واحترام لشخصي»، كما أكدت على لسانه د. رجاء بن سلامة، وهي صادقة وهو أيضاً صادق. لكن دوافعه اللاشعورية، التي أسقطها عليّ، لم تكن في صالحي: تحدث عن أمه هو على أنقاض حديثي عن أمي، ترجم فصحى الحياة المسجوعة التي تتكلم بها أمي، إلى رطانة الفقهاء. قوّلني مراراً حماقات مضحكة حيناً ومبكية حيناً. المضحكة مثلاً: «خصصوا [= حكام جنوب اليمن] سيارة فاخرة» لتنقلاتي. أولاً، أكره السيارات الفاخرة، المسؤولة الأولى عن تلويث البيئة، وثانياً لا أحب الفاخر من أي شيء، خاصة الثياب والطعام؛ والحال أن ما قلته حقاً «سيارة لاندروفر»، فأسقط حسن حاله على حالي، معتبراً ذلك إهانة لابن بلده لا يستحقها، فصححها بكذبة بيضاء! السيارة المذكورة كانت لزيارة القبائل ومساحلة البحر في أوقات الجزر، ويبدو أن السيارات الفاخرة لا تستطيع ذلك. ومبكية حقاً مثلاً:



جنوب اليمن، في 1969 تاريخ رحلتي، يرأسه رئيسا جمهورية في وقت واحد: عبد الفتاح إسماعيل، وفي الصفحة نفسها سالم ربيع! من خواص الذهنية البدائية، أنها تقبل تعايش النقيضين: والحال أن الثالث المرفوع، أي استحالة التعايش بين النقيضين، مبدأ مؤسس في المنطق والعالم المعاصر معاً. رئيس جمهورية اليمن، في 1969 لا يمكن أن يكون إلا أحد اثنين: إما سالم ربيع وإما عبد الفتاح اسماعيل؛ أما أن يكون لجمهورية واحدة رئيسان في وقت واحد، فهذا محال. تصوروا أن الحديث المنسوب إليّ نشر بعد موتي: كان سيكون موتاً ثانياً! وهذا غيض من فيض!

من حسن الحظ أني اطلعت على حديثه قبل نشره فوضعته جانباً ونشرت حديثي، ملخصاً ومركزاً، تحت عنوان: «مفتاح شخصيتي النفسية هو علاقتي بأمي»، بالمناسبة هذه الجملة التي قلتها في الحديث، بنية أن أجعل منها عنواناً له، أسقطها حسن من حديثي، كما أسقط جملاً وفقرات بكاملها مهمة [هذا الحديث وحديث ثاني منشور في إيلاف يمثلان لوحتين مهمتين من سيرتي الذاتية].

في هذه الطبعة الرقمية الثانية، صححت أولاً تسلسل الحلقتين 3، 4 المعكوستين: مما يجعل القارئ مثل من ينتعل فردتي حذاء معكوستين! حذفت كلمات، وجمل وفقرات تراءت لي ثانوية، أو تقريبية، أو ضعيفة أو حتى خاطئة البناء، وأضفت حوالي 11 ألف كلمة وحلقتين جديدتين، غنية بالمعطيات الجديدة والتحليلات غير المسبوقة [أكره التواضع الكاذب الذي يخفي تبجحاً حيياً] للظاهرة الدينية. مما قد يساعد القراء وصناع القرار على فهم أيسر وأشمل لرهانات إصلاح الإسلام بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان.



أراهن بأن قرائي سيشعرون وكأنهم يقرأونني لأول مرة.

السؤال الثاني ـ وطبعاً الأهم ـ هو الإجابة عن سؤال شكيب أرسلان: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم».

لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ لأنهم لم يعرفوا أو لم يستطيعوا كيف يصلحون الإسلام!

«لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم»؟ هو السؤال، بألف ولام التعريف، الذي طرحه على النخب المسلمة شكيب أرسلان وما زال مطروحاً! عصره لم يكن يساعده على الإجابة السديدة. فقد هوّم وحوّم وقال الشيء ونقيضه... مقدماً لهذا السؤال الوجيه إجابات قلما كانت وجيهة! وفي المقابل عصرنا، عصر ثورة الاتصالات وتسارع التاريخ، أي التقدم العلمي والتكنولوجي وتبلور علوم الأديان، وانتصار حقوق الإنسان، كما حددتها المواثيق الدولية، على رواسب الهمجية سواء في القوانين الشرعية أو غير الشرعية، عصر الانتقال شبه النهائي من الحاكمية الإلهية إلى حاكمية العقل البشري غير الكاملة لكنها قابلة للكمال، يساعدنا على تقديم إجابة عن إمكانية واقعية لإصلاح الإسلام: «بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان» ضمن ديناميك مشروع إصلاحي شامل لكل قطاعات الحياة السياسية، والاقتصادية، والديموغرافية، واللغوية، والثقافية والدينية وفي مقدمتها جميعاً إصلاح صناعة القرار.

علوم الأديان تساعدنا على جعل مظاهر وشعائر وعقائد وبواعث الدين شفافة، بتقديمها فرضيات وحقائق نستنير بها لفهم ظاهرة الله، والنبوة، والإيمان والتعلق الوسواسي بالشعائر، والرغبة النرجسية في الخلود في حياة أخرى بعد الموت، كمسكن لقلق الموت.



وبهذه المناسبة، أزفّ بشرى لضحايا القلق الديني والمخدر، الديني والدنيوي، كالشعائر الوسواسية والمخدرات والكحول: «حبة السعادة»، هي دواء جديد، قيد التجربة، مضاد للقلق والاكتئاب، منشط ومفرح. حسبُ المكتئب تناول حبة كل صباح ليشعر فوراً بالارتياح والسعادة. ليس لحبة السعادة أعراض جانبية، ولا تسبب الإدمان عليها أو التبعية لها. لا شك أنها ستساعد على شفاء الكثيرين من المدمنين على الكحول والمخدرات، أو الشعائر الوسواسية، أو الرغبة السادية في التلصص والتجسس على حياة الآخرين لـ«نهيهم عن المنكر». حبة الساعدة كفيلة بتحريركم من سعادتكم الوهمية وشقائكم الحقيقي. إنها برهان، لمن ما زال في حاجة إلى برهان، على أن العلم والتكنولوجيا عوضا الدين في توجيه حياة الإنسان المعاصر إلى سواء السبيل.

الجديد يسبح ضد التيار خاصة في الدين؛ الإنسان التقليدي يرهب الجديد، يخشى الأسئلة المزعجة لأنها تزعزع قناعاته الراسخة والمطمئنة.

عدت من المدرسة ذات يوم والتقيت بخالي «رزق» الأمي. سألني: واش اتعلمت اليوم؟ أن الشمس لا تغرب ولا تشرق. هذا مجرد خطأ شائع وخدعة بصرية كما قال الأستاذ. الصحيح هو أن الأرض دارت حول نفسها في 24 ساعة. قطب حاجبيه: ايش بيك، ضربوك الجنون؟ وقام وتركني في المقهى ولم يدفع ثمن كأس الحليب وهو يعرف أنه ليس في جيبي فلس!

من تغويهم السباحة ضد التيار، هم أولئك الذين تعلقوا منذ الطفولة بالرغبة في اكتشاف المستور: اكتشاف أعضاء الأبوين



الجنسية، الرغبة الجامحة في التلصص عليهما من ثقب باب الحمام عاريين. وهذا ما يسمّيه علم النفس فوايوريزم. هذا هو المحرك النفسي الخفي للبحث الفكري والعلمي والثقافي الذي طالما أورد «المصابين» به موارد الهلاك، خاصة في عصور محاكم التفتيش الكاثوليكية أو في عصر الفتاوى، التي يفبركها اليوم بغزارة الهذيان الديني الإسلامي.

الهذيان الديني هو اليوم، عند فقهاء أقصى اليمين الإسلامي التقليدي والسياسي، رد فعل مجنون عن تكذيب الاكتشافات العلمية المتسارعة، ليقينياتهم العمياء؛ عمياء لأنها استعصمت بالقراءة الحرفية للنص، وبظاهر النص، مما يجعل من يمارسونها في صدام عنيف مع علوم ومؤسسات وقيم العالم الذي يعيشون فيه.

خصوم المجددين هم المحافظون. وهم مثلهم مولعون بالتفرج على لذة المتناكحين. لكن التربية العائلية، الفظة والجاهلة بمبادئ تربية الطفل، كبتت فيهم هذه الرغبة كبتاً عنيفاً، فتحولت إلى عكسها ونقيضها: غض البصر: الحياء، والحياء في العربية هو «الحشمة والتوبة وانقباض النفس من الشيء وتركه خوفاً من اللوم» (المنجد). خصوم التجديد والإصلاح «خوفاً من اللوم» هم المحافظون الذين يريدون بقاء دار لقمان على حالها. شعارهم: «الباب اللي يجيك منو الريح سدو واستريح».

التاريخ يصنعه من ينتمون إلى المتلصصين من ثقب الباب، الذين لولاهم لبقيت البشرية عاجزة عن العمل والتفكير: عن اختراع الآلة واختراع الأفكار، اللذين تطور بهما القرد إلى إنسان.

من الصعب التخلص من الشلل النفسي لمن أصيبوا به. لكن



يمكن بالتعليم، والإعلام، والخطاب الديني المستنير مساعدة الأجيال الطالعة، على الانتقال من الإيمان الأعمى إلى الإيمان كرهان، الذي يبدو أنه يمتلك زمام المستقبل. فالتعصب الديني والتعصب العنصري هما في موقف دفاع، أمام دفق المعلومات والقيم التي تحملها الشبكة العنكبوتية بسرعة الصوت والضوء.

في الواقع تخلت غالبية المؤمنين، في الديانات التوحيدية التي أنجزت إصلاحها، عن اليقين الديني الأعمى، منتقلة إلى الإيمان كرهان. مجرد رهان، محاكاة للرهان البسكالي الشهير: «النزن الربح والخسارة في الإيمان بوجود الله. لنقدر ثمن هاتين الحالتين: إذا كسبت [= في رهانك على وجود الله] فقد كسبت كل شيء؛ وإن خسرت لن تخسر شيئاً. فلنراهن إذن على أنه موجود بلا تردد».

الإيمان كرهان، ملحوظ اليوم حتى لدى بعض الكهنة والحاخامات، فضلاً عن المؤمنين بالديانات الوثنية الكبرى. بدوري، أراهن على أن إصلاح الإسلام، بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان، سيُسرع ويُعمم الإيمان كرهان في الإسلام أيضاً، على أنقاض إيمان العجائز.

الهدف من إصلاح الإسلام هو جعل الإسلام المعاصر يتبنى العقلانية الدينية الإسلامية، لأنه بها سيقف على قدم المساواة مع جميع الديانات الكبرى الأخرى، التوحيدية والوثنية، التي تبنت العقلانية الدينية قاطعة مع إيمان العجائز المطلق والساذج.

ما المقصود بالعقلانية الدينية؟ قبول مؤسسات وعلوم وقيم العالم الذي نعيش فيه. وخاصة اعتناق الدين العلماني العالمي، دين حقوق الإنسان، المناسب لجميع الديانات، شرط أن تحترم هي قيمه



الكونية، التي يسلم بها كل عقل سليم أينما كان: مثلاً حرية التعبير، حرية التدين، حرية الضمير، المساواة الكاملة في الحقوق والكرامة بين الرجل والمرأة، والمسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي، والمؤمن وغير المؤمن وبين المؤمنين مهما اختلفت انتماءاتهم الدينية أو الطائفية. هذه الحقوق غدت اليوم مسلّمات، في جميع الديانات الكبرى، لا تجادل فيها إلا فرق متعصبة محدودة العدد والتأثير. إلا في الإسلام فما زال قطاع واسع يقف منها في أحسن الحالات موقف المتحفظ وفي أسوأها موقف الرافض والمحارب لها. الموقفان يلحقان بالإسلام والمسلمين ضرراً بليغاً، داخلياً وخارجياً: داخلياً ببقاء الدولة في أرض الإسلام نصف همجية، خارجياً بتغذية الإسلاموفوبيا. وهكذا يلطخ الموقفان صورتنا في مرآة الرأي العام العالمي، وما من شعب يستطيع تجاهل حالة صورته في مرآة الرأي العام العالمي. مما جعل اليوم تقديرنا لأنفسنا، واعتزازنا بها ما زال في الدرجة صفر. لأننا ما زلنا عاجزين عن أن نكون معاصرين لعصرنا دينياً، سياسياً، اقتصادياً وأخلاقياً. والحال أن المطلوب هو أن نكون معاصرين لمعاصرينا في جميع الميادين.

بالإصلاح، نريد التخلص من الشلل النفسي الملازم لعبادة الأسلاف وطريقة تدينهم التي لم تعد من هذا العالم: عالم حقوق الإنسان والمواطن. نريد التخلص من إسلام القرون الوسطى المتقادم، الذي يعبّر عنه مشروع أقصى اليمين الإسلامي غير القابل للتحقيق اليوم: إسلام الإجماع، إسلام الجماعة المفروض على الفرد بقوة التقاليد أو بالقوة، إسلام تذويب العقل في النقل وتذويب الفرد في الأمة. مشروع دستور جماعة الإخوان المسلمين المصرية في سنة



2011 هو عينة تعبّر بكثافة عن هذا الإسلام الفصامي، الذي أناخ بكلكليه على عقول المسلمين، منذ كفروا العقل وتسمروا ذُهانياً في النقل والنرجسية الدينية الملازمة له.

السيادة للشرع لا للشعب، المادة (20): «يقوم نظام الحكم على 4 قواعد هي السيادة للشرع لا للشعب. السلطان للأمة، تنصيب رئيس الدولة فرض على المسلمين، لرئيس الدولة وحده حق تبني الأحكام الشرعية، فهو الذي يسن الدستور وسائر القوانين»؛

المسلم وحده ينتخب رئيس الدولة، المادة (31): «لكل مسلم بالغ عاقل رجلاً كان أو امرأة الحق في انتخاب رئيس الدولة وفي بيعته ولا حق لغير المسلمين في ذلك»؛

مبايعة رئيس الدولة مدى الحياة، المادة (43): «ليس لرئاسة الدولة مدة محدودة، فما دام رئيس الدولة محافظاً على الشرع منفذاً لأحكامه قادراً على القيام بشؤون الدولة، يبقى رئيساً للدولة ما لم يتغير حاله تغيراً يخرجه عن رئاسة الدولة»؛

رئاسة التنفيذ للمسلم فقط، المادة (55): «يشترط فيمن يتولى إدارة التنفيذ أن يكون مسلماً...»؛

تولي القضاء للمسلم فقط، المادة (71): «يشترط فيمن يتولى القضاء أن يكون مسلماً حراً، بالغاً، عاقلاً، عدلاً، فقيهاً مدركاً لتنزيل الأحكام على الواقع»؛

القضاء درجة واحدة، المادة (87): «لا توجد محاكم استئناف، ولا محاكم تمييز، فالقضاء من حيث البت في القضية درجة واحدة. فإذا نطق القاضي بالحكم، فحكمه نافذ ولا ينقضه حكم قاض آخر مطلقاً»؛



الاستعداد للجهاد، المادة (90): «الجهاد فرض على المسلمين والتدريب على الجندية إجباري، فكل رجل مسلم يبلغ الخامسة عشرة من عمرة فرض عليه أن يتدرب على الجندية استعداداً للجهاد»؛

المرأة أم وربة بيت وعرض لا غير، (المادة 100): «الأصل في المرأة أنها أم وربة بيت وهي عرض يجب أن يصان»؛

المرأة مقصاة من الولاية العامة، المادة (104): «لا يجوز أن تتولى المرأة الحكم، فلا تكون رئيس دولة ولا قاضياً في محكمة المظالم ولا والياً ولا عاملاً [= محافظاً]»؛

الزكاة من المسلمين، المادة (131): «تجبى الزكاة من المسلمين. . .»؛

الجزية من أهل الذمة، المادة (132): «تجبى الجزية من الذميين»؛

المصرف الوحيد هو بيت المال، المادة (156): «يمنع فتح المصارف منعاً باتاً، ولا يكون إلا مصرف الدولة، ولا يتعامل بالربا ويكون دائرة من دوائر بيت المال»؛

هدف التعليم تكوين العقلية الإسلامية، المادة (159): «سياسة التعليم هي تكوين العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية فتوضع جميع مواد الدراسة التي يراد تدريسها على أساس هذه السياسة»؛

الإسلام هو محور السياسة الخارجية، المادة (177): «الإسلام هو المحور الذي تدور حوله السياسة الخارجية، وعلى أساسه تبنى علاقة الدولة بجميع الدول»؛

رعايا الدول المحاربة تستباح أموالهم ودماؤهم، المادة (178): «علاقة الدولة بغيرها من الدول القائمة في العالم تقوم على اعتبارات



أربعة (. . .) الدول التي بيننا وبينها معاهدات اقتصادية أو معاهدات حسن جوار (. . .) تكون العلاقات معها محدودة ومما لا يؤدي إلى تقويتها (. . .) الدول التي ليس بيننا وبينها معاهدات والدول الاستعمارية فعلاً كإنجلترا وأمريكا وفرنسا والدول التي تطمع في بلادنا كروسيا تعتبر دولاً محاربة حكماً (. . .) ولا يصح أن تنشأ معها علاقات دبلوماسية (. . .) الدول المحاربة فعلاً كإسرائيل مثلاً يجب أن تتخذ معها حالة الحرب أساساً لكافة التصرفات، ويمنع جميع رعاياها من دخول البلاد، وتستباح دماء وأموال غير المسلمين منهم»؛

الانسحاب من المنظمات الدولية، المادة (182): «المنظمات التي تقوم على غير أساس الإسلام، أو تطبق أحكاماً غير أحكام الإسلام، لا يجوز للدولة أن تشترك فيها، وذلك كالمنظمات الدولية، مثل هيئة الأمم، ومحكمة العدل الدولية، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي».

هذه عينة من إسلام أقصى اليمين الإسلامي التقليدي والسياسي لا في مصر وحسب، بل وأيضا في بلدان إسلامية عدة: إسلام الولاء والبراء، أي الولاء للمسلمين والبراء من الكافرين ومعبوداتهم، ومؤسساتهم، وعلومهم، وقيمهم والجهاد فيهم باق إلى قيام الساعة! وهو إسلام يجيب جواباً بليغاً عن سؤال شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم!

هذا هو الإسلام الذي علينا أن نضعه في أرشيفات التاريخ، وليس على جدول الأعمال اليومي. هذا هو الإسلام، الذي يجب أن تختار النخب والجمهور المستنير بينه وبين إسلام العقلانية الإسلامية المنفتح على العالم الذي نعيش فيه.



مفتاح التجديد هو التفكيك وإعادة البناء. الهدف من إصلاح الإسلام هو تفكيك الإسلام العتيق، الذي قادنا إلى المهالك، واقتراح طريق سياسي جديد للإنقاذ العام؛ والتبشير بالأمل والتفكير في إعادة صنع عالم إسلامي حديث مندمج في العالم كما هو.

ملاحظة: رفض نبي الإسلام تجنيد الأطفال، 15 عاماً، لكن تحت إلحاح صحابته الشديد تراجع كعادته أمامهم وجند الأطفال في أحد، بعد أن كان رفض تجنيدهم في بدر. بعد أكثر من 14 قرناً، يريد أقصى اليمين الإسلامي انتزاع الأطفال من مقاعد المدرسة، لـ: «تدريبهم على الجندية استعداداً للجهاد»، جهاد الدفع وجهاد الطلب!

محمد عُد من قبرك فأتباعك اليوم جُنّوا.

نوفمبر 2012

تنبيه ورجاء

في هذه الطبعة الثانية، أثريت «دراسة الإسلام وتدريسه بعلوم الأديان» بإضافة بعض المعطيات والتحليلات، التي تساعد القارئ وصانع القرار على الاستفادة الأمثل منه، متمنياً أن يبادر بعض ذوي العزائم الطيبة إلى إنشاء مدرسة رقمية على الشبكة العنكبوتية لتدريسه، مع كتابات الإصلاحيين الآخرين، للشباب الراغب في ذلك. أعلمني السيد ستيفن ألف، منشط موقع «المصلح»، أنه برمج ترجمته إلى الإنجليزية؛ فأرجو أيضاً من أنصار إصلاح الإسلام، الذين لا يعرفون العربية، أن يفكروا في إمكانية ترجمته إلى لغاتهم انطلاقاً من الترجمة الإنجليزية، عسى أن يثير ذلك حواراً نقدياً، نخبنا وشعوبنا في حاجة ماسة إليه.



1 ـ مبرّرات إصلاح الإسلام

سؤال: الفكرة الشائعة أن الإسلام لا يقبل الإصلاح فعلى ماذا تراهن؟

جواب: قدّم الإسلام في تركيا منذ 1924 حتى الآن، وفي تونس منذ 1956 حتى اليوم، البرهان على قدرته على إصلاح نفسه نسبياً على الأقل. فما الذي يمنعه من تقديم البرهان على هذه القدرة في باقي البلدان، وعلى نحو أشمل وأعمق؟ إصلاح الإسلام اليوم ضروري وممكن. ما ينقص هو الشجاعة السياسية والشجاعة الفكرية. صحيح أن عتاقة النخب الدينية، في أقصى اليمين الإسلامي السياسي والتقليدي، لا تسهل التكيف الضروري مع العالم الذي نعيش فيه. لكن الشجاعة مطلوبة لمثل هذه الحالات. شجاعة النخب، التي تملك رؤية واضحة للمستقبل الذي تقود إليه شعوبها برؤية واضحة، بلورتها صناعة قرار واقعي. حسب ابن قتيبة، الإجماع، إجماع نخب الأمة وسلطاتها التشريعية بالمفهوم المعاصر، «أهم من الحديث في التشريع». إذن إصلاح الإسلام لا يحتاج إلى نص ديني، بل إلى إجماع صناع القرار على أنه ضرورة ومصلحة. وكما يقول الشاطبي: وحيث المصلحة فثمة شرع الله.



سؤال: هناك من يقول إن إصلاح الإسلام ليس أولوّية في عالم عربي مليء بالمشاكل والتحدّيات. فما هو رأيك أنت الذي تعتبره أولويّة الأولويّات؟

جواب: إصلاح الإسلام هو أولويّة الأولويّات. لأنّ على الشروع في إصلاحه يتوقّف نجاح الورشات الأخرى التي تبدو في الظاهر لا علاقة لها به، كورشة الإصلاح الاقتصادي مثلاً. وورشة إصلاح الإسلام لا تتنافى مع فتح الورشات الأخرى بل تتكامل معها وتقتضيها. وورشات الإصلاح جميعاً يأخذ بعضها برقاب بعض. فورشات الإصلاح السياسي والاجتماعي والتربوي والديمغرافي واللغوي... جزء لا يتجزّأ من ورشة إصلاح الإسلام. القاسم المشترك بينها، أنّها جميعاً تتطلّب كأولويّة مطلقة إصلاح صناعة القرار. سبب الأسباب لتخلّفنا، أو بما هو أدقّ، لتخبّطنا الطويل في أزمة الحداثة، التي نجتازها وعدم خروجنا منها سالمين حتّى الآن، هو سوء صناعة القرار، الذي ما زال في تسعة على عشرة على الأقل من البلدان العربية، لا تصنعه المؤسّسات صناعةً علمية يكون الكمبيوتر أوّل صانع له، بل تصنعه نزوات وهذيانات الحاكم الفرد. واحد من بين عشرات الأمثلة، صدّام حسين الذي افتخر بأنّ القرار، الكارثي عليه وعلى العراق وربّما على الشرق الأوسط كلّه، قرار ضمّ الكويت، اتّخذه بناء على حلم رآه في المنام؛ مُضيفاً: اعتماداً على حديث محمّدي، بأن الحلم الصادق جزء من أربعين جزء من النبوّة. لكن الملاك الذي أوحى اليه بالحلم، نسي أن يوصيه بطرح السؤال المركزي، الذي توجبه صناعة القرار: «وماذا في صباح اليوم التالي؟». وهو السؤال الذي لم يطرحه قبله جمال عبد الناصر، عندما طرد



القوات الدولية المرابطة على الحدود المصرية الإسرائيلية في مايو 1967، والذي كان سبب حرب الستة أيام؛ ولم يطرحه بعده السيد حسن نصر الله، عندما خطف الجنود الإسرائيليين الثلاثة، فتسبب في حرب 2006؛ ولم تطرحه حماس عندما رفضت تجديد الهدنة مع إسرائيل، فتذرعت بها حكومتها لشن حرب غزة سنة 2008. في الحقيقة طريق هزائم العرب والمسلمين، منذ اصطدامهم بالاستعمار، كان غالباً مفروشاً بالقرارات الانفعالية التي يصنعها الفكر السحري، الذي يطلب من أضغاث الأحلام أن تتحول إلى رؤى صادقة، ومن التخييلات أن تتحول إلى حقائق. جميع منجزات الحداثة، منذ خمسة قرون إلى الآن، صنعتها قرارات سياسيّة شجاعة وذكيّة، ما زالت بالنسبة للنخب العربية برسم الاكتشاف.

سؤال: ماذا تعني بشجاعة وذكية؟

جواب: أعني واقعية، تستلهم واقع عصرها. عكس القرارات المتهورة والغبية، التي تُرتجل تحت ضغط الأحداث والتي طالما اكتوينا بنارها، لأنها تستلهم عادة مخاوف صانع القرار اللامعقولة أو ردود فعله الهاذية، خاصة والبارانويا هي أعدل الأشياء قسمة بين حكام أرض العروبة والإسلام. العالم الذي نعيش فيه معقد وغير قابل للتّوقع، ومقاربته بالقرارات المرتجلة واللامعقولة تساوي الانتحار بشقّ البطن. أن تكون شجاعاً وذكيّاً، هو أن تعترف بأن الواقع والرغبة قلما يجتمعان. أي أن مبدأ اللذة ومبدأ الواقع نقيضان. وهذا ما لم يدركه بعد الإسلاميون والقوميون، الذين ما زالوا يتفاوضون مع أنفسهم ويغالطونها في حقائق العصر الذي يعيشون فيه.



سؤال: هلا وضحت أكثر علاقة الإصلاح الديني بصناعة القرار؟

جواب: هي علاقة وثيقة. صناعة القرار العربية، قلما احترمت المبدأ الأول لهذه الصناعة، الذي هو التعريف الدقيق، دقة المعادلات الرياضية، للمصلحة القومية، والحساب الدقيق للتكاليف والمكاسب، أي للخسارة والربح في كل قرار. وتجاهلت المجالات الاستراتيجية الأربعة: إصلاح الإسلام، والبحث العلمي، والتجديد التكنولوجي والتعليم الجيد بالمعايير الدولية. صنع قرار الإصلاح الديني اليوم يفترض التفكير في مخاطر النهاية المأساوية لأي مشكلة تطرح نفسها علينا، من أجل تغيير الاتجاه في الوقت المناسب. بقاء الإسلام من دون إصلاح، أي من دون فصل الدين عن الدولة، لتفادي مخاطر الحروب الطائفية والدينية، خاصة الحرب السنّيّة ـ الشيعيّة، التي قد تتحول في إحدى مراحلها إلى حرب ذرية؛ ومن دون فصل الشريعة، خاصة في الأحوال الشرعية والقصاص، عن القانون الوضعي، ليغدو الوحيد المُطبَّق، سيسقط العالم الإسلامي في همجيّة تطبيق العقوبات البدنية التي ينطبق عليها وصف فرويد للمارسات النازيّة بأنّها «همجية ما قبل التاريخ»؛ ومن دون فصل البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني عن الرقابة الدينية، سيبقى «الاشتباك بين القرآن والعلم»، كما أسماه د. عبد الصبور شاهين، دائماً؛ ومن دون الفصل بين المؤمن والمواطن، سيبقى المسلمون ماثلين أكثر فأكثر في قفص اتهام المجتمع المدني العالمي لهم بالانتهاك المتكرر لحقوق الإنسان والمواطن، وبمعاملتهم المرأة كحشرة مُؤذية، وأقلّياتهم كأهل ذمّة، والعالم كدار حرب موعودة بالجهاد، الذي أخذ منذ الآن اسم الإرهاب الإسلامي العالمي؛ والذي تنعكس صورته سلباً على الإسلام



نفسه في نظر الرأي العام العالمي وفي نظر قطاع من المسلمين أنفسهم!

يستمد الإصلاح الديني مشروعيّته من إمكانية قطعه للطريق على مخاطر هذه النهايات المأساوية، ومن تكييف الإسلام مع عصره، الذي يتّجه في السيناريو المتفائل، إلى حضارة بشرية واحدة تتعرّف على هويتها في القيم الإنسانية الكونية المشتركة، وفي الضوابط الأساسية للعيش معاً، في عالم مُعَولَم تشابكت فيه مصائر البشرية، في السرّاء والضراء، إلى درجة أن سؤال الحكومة الإقليمية والحكومة العالمية أو «الكونفدرالية العالمية»، كما يسمّيها الفيلسوف والأنتروبولوغ ادغار موران، أصبح سؤالاً مشروعاً لمواجهة تحديات يتوقف على رفعها بقاء الحضارة، بل وربما بقاء النوع البشري نفسه.

سؤال: ما هي نقاط الضعف في الحالة الإسلامية التي يمكن علاجها بالإصلاح الديني؟

جواب: ما زال الإسلام لم يرفع حتى الآن تحدّي عوائقه الثلاثة، التي شخّصها رينان في القرن التاسع عشر: احتقار العلم الوضعي، ورفض البحث العقلاني في نصوصه بما هي كلام الله المُنزّه عن المساءلة العلمية، وفي رموزه بما هم فوق البحث والمساءلة، والخلط بين الروحي والزمني.

وهذه هي عوائق دينية، وذهنية ونفسية تحالفت على كبت الإبداع الديني والسياسي والاقتصادي والعلمي والأدبي والفني؛ مثلاً الرسم والنحت والموسيقى ما زالت محرّمة في الإسلام. اليهودية، التي أخذنا عنها هذه المحرمات، تناستها لحسن حظ اليهود. ونحن ما زلنا



متسمّرين فيها. تناست أيضاً حد الرجم الدموي الذي أخذناه عنها. بالرغم من عدم وجوده في القرآن وتهافت الروايات عن رجم النبي لزناة. . . إيران، والسعودية، والسودان و«شباب الشريعة» في الصومال ما زالوا يرجمون. الأمير خالد بن سلطان، وزير الدفاع السعودي، منعني سنة 2001 من الكتابة في «الحياة»، التي كانت مصدر عيشي الوحيد. لماذا؟ لأنني طالبت «في الجزيرة» بتدخل دولي لمنع الرجم في إيران، محتجاً بأن السعودية هي أيضاً ترجم، فتكون إذن مشمولة بمطلب التدخل الدولي. رئيس «النهضة»، راشد الغنوشي، اعتبر، في مقال وقعه، أن العقوبات البدنية الإسلامية، كالجلد، أرحم من السجون الأوربية. فلماذا لا يعتبر الرجم أيضاً أرحم من السجون الأوربية، علماً بأن عقوبة الزنا نسخت من القوانين الأوربية منذ زمان طويل؟

عالم الإسلام ما زال يمشي على رأسه، ونريد، «بإصلاح الإسلام»، أن نجعله يتعود المشي على قدميه.

سؤال: لكن جمال الدين الأفغاني ردّ على رينان بأن جميع الأديان معادية للعلم، وليس الإسلام وحده هو المعادي للعلم؟

جواب: صحيح أن جميع الأديان، التوحيدية على الأقل، تنطبق عليها تهمة رينان، لكن اليهودية والمسيحية قبلتا أخيراً، طوعاً أو كرهاً وبالأحرى كرهاً، رفع تحدّيات رينان الثلاثة. مثلاً كشف علم الأركيولوجيا في إسرائيل على أن ما كان يُظَنّ وقائع تاريخية، في أسفار العهد القديم، لم يكن إلاّ أساطير؛ مثل الخروج من مصر، وشقّ البحر الأحمر بعصا موسى؛ وهيكل سليمان الذي اتّضح أنّه شخصيّة أسطورية، والملك داوود الذي كان يُعتبر شخصية تاريخية، اتّضح أنه



شخصية نصف أسطورية. لا بأس بهذا الصدد من ترجمة كتاب (الكتاب المقدس وقد تَعرّى) تأليف الأركيولوجيان الإسرائيليّان نأ. سيلبيرمان وجفينكيلستين. احتجّ المتعصّبون من رجال الدين اليهودي، لكن العلماء الإسرائيليين لم يُقدّموا للمحاكمة، كما حوكم د. نصر حامد أبو زيد في مصر، ولا صدرت ضدّهم فتاوى بالقتل، كما يفعل رجال الدين الإسلامي، ولا بالطبع اغتيل أيّ عالم منهم، كما اغتيل فرج فودة وأيّد اغتياله بتهمة الردّة محمد الغزالي، أحد نجوم الإسلام السياسي. مؤخراً طالب مجلس البحوث بالأزهر بمحاكمة سيد القمني وحسن حنفي من أجل أفكارهما. ما زلنا نعيد صلب الحلاج، وسلخ السهروردي، ونطارد التصوف والفلسفة والعلوم الحديثة وخاصة منها الإنسانية.

سؤال: لماذا عجز إسلام الفقهاء عن رفع هذه التحديات؟

جواب: بسبب افتقاده للقدرة على التكيف مع العالم الحديث. ديناميته الأولى، الجهادية، تحولت إلى عائق وعجز عن اكتساب دينامية جديدة تتطلبها الحقبة التاريخية. هي دينامية التكيف مع جديد التاريخ. عندما يفتقد الدين القدرة على التكيف والدينامية يسقط في الجمود الديني، الأب الشرعي لكل الانحرافات الدينية وفي مقدمتها عبادة الأسلاف.

سؤال: ما المقصود بالجمود الديني؟

جواب: هو تحريم السؤال، وفرض الأجوبة الجاهزة، الصالحة للجميع ولجميع الأزمنة وجميع الأمكنة، هو اليقين الجامد، وإيمان العجائز المطلق والساذج. إيمان العجائز يصلح للعجائز ولكنه لا



يصلح للباحثين. هو العجز عن التطور وإنتاج الأفكار المجددة. وهو في الوقت نفسه محاربة القلة المجددة التي تظهر من حين لآخر، مثل الشيخ نجم الدين الطوفي الحنبلي الذي سُجن وأُتلفت كتبه، والفلاسفة والمتصوفة الذين راموا إصلاح الإسلام في عصرهم، وكلفهم ذلك أحياناً حياتهم مثل السهروردي والحلاج. مفتي مصر ورائد إصلاح الإسلام، محمد عبده، الذي رفض الأزهر لنصف يوم صلاة الجنازة عليه، لحسم النقاش الديني عمّا إذا كان مرتداً أم لا، ورائد تحرير المرأة التونسية من رق فقه العصور الوسطى، الطاهر الحداد، شيع جنازته بضعة أصدقاء...

سؤال: وأنت ماذا تتوقع بعد عمر طويل؟

جواب: تبرعت بأعضائي وأنسجتي لمن يحتاجون إليها لزرعها. ووهبت جثتي للعلم. لكلية الطب في أي بلد أموت فيه. عندما سلمت وصيتي لرئيسة الممرضات، في أحد المشافي الباريسية، قالت لي هذا إذا قبلتها كلية الطب، التي كثيراً ما ترفض لكثرة المتبرعين. قارن هذا مع تحريم فقهاء الجمود الديني تشريح الجثث. في 1973، كانت كليات الطب السورية تستورد من الصين الجثة بألف دولار. هذا التسمر في أحكام فقهية معادية للعلم، هو أحد أعراض عبادة الأموات الفرعونية، التي هي بدورها راسب من عبادة الأموات منذ العصر الحجري الحديث التي ترافقت مع شعائر الدفن، - كما يعلمنا ذلك تاريخ الأديان المقارن - التي جعلت فقهاء الإسلام يحتقرون الجسد حياً ويقدسونه ميتاً. هذه الواقعة وحدها حافز على ضرورة التعجيل بإصلاح الإسلام.



سؤال: قلتَ في مقال يتيم عن إصلاح الإسلام إنّ إصلاحه يمرّ بالانتقال من مدرسة اللامعقول الديني إلى مدرسة المعقول الديني. فماذا تقصد بذلك؟

جواب: كل إصلاح حقيقي هو إعادة تأسيس، هو ابتكار لنموذج جديد من العقلانية الدينية، التي لا تعترف من الدين خاصة، في المعاملات، إلا بما يقبله العقل الذي جسدته وثائق حقوق الإنسان. كل إصلاح ديني يمر بقتلٍ رمزي للأب؛ في موضوعنا، يمر بالقطيعة مع لامعقول التراث، وبحلّ مشكلة تنفيذ الجديد بالأدوات القديمة. العمليتان تتطلّبان إصلاح التعليم والإعلام والخطاب الديني جُملةً. لا، بل إن إصلاح الإسلام لن يتحقّق إلاّ بالانتقال من مدرسة اللامعقول الديني، المُستمرّة منذ قرون في اجترار أجوبة غدت متقادمة، إلى مدرسة المعقول الديني المنشودة الوحيدة المؤهّلة لعقلنة التعليم، والخطاب الديني بما فيه الخطاب الديني الإعلامي. الانتقال من مدرسة اللامعقول الديني إلى مدرسة المعقول الديني، يعني الانتقال من القراءة الحَرفيّة للقرآن خاصة المدني، السائدة إلى اليوم تقريباً في كل مكان من أرض الإسلام، إلى القراءات الأخرى المنافسة لها والتي همّشتها أو كفّرتها كالقراءة التأويليّة، والمقاصديّة، والرمزيّة والتاريخيّة التي مارسها القرآن نفسه بالناسخ والمنسوخ، أي نسخ الآيات التي لم تعد متكيّفة مع مستجدّات التاريخ. واصل الخلفاء الراشدون وبعض الفقهاء هذه القراءة الناسخة للأحكام التي لم تعد تستجيب للواقع المعيش. هذه القراءة الأولى للنّص المُؤسِّس، التي مارسها الراشدون، ضرورية لنا جدّاً اليوم. وعلى مدرسة المعقول الديني أن تستعيدها. وهذا ما دشّنه اليوم كلٌّ من جمال البنا، وحسن



الترابي، ومحمد الطالبي، وغالب بن الشيخ وأنا نفسي. للتاريخ، أوّل من طالب بالعودة إلى القراءة التاريخية لنسخ أحكام الآيات المتقادمة هو المأسوف على فقده، محمد عابد الجابري سنة 1988، وعندما استخدمت مصطلحه سنة 2002 بعد توسيعه وتعميقه نوهت بذلك.

سؤال: قد يقول قائل هذه القراءات التي تحدّثت عنها تكفّلت بها علوم الدين الإسلامية، فلماذا اللجوء إلى علوم الأديان المعاصرة التي دُرست بها الأديان الأخرى، فلماذا لا نكتفي بإصلاح الإسلام من الداخل كما يقول الأستاذ الجابري رحمه الله؟

جواب: كان ينبغي أن تُضيف الأديان الأخرى بما فيها الإسلام، وخاصّة الظاهرة القرآنية التي درسها بعض المستشرقين، وحتّى المسلمون أنفسهم، مثل محمد أركون في كتابه «قراءة القرآن»، ومحمد علي أمير معزي الذي أشرف على إصدار معجم القرآن بالفرنسية الصادر سنة 2007. تُرجم إلى عدد من اللغات إلاّ لغة القرآن. هذه الواقعة وحدها إدانة لعدم إصلاح الإسلام حتى الآن، لذلك ما زال يخشى، خشية الموت، دراسته بعلوم الأديان!

القراءات الأخرى المقصودة يجب أن تستضيء بعلوم الأديان المعاصرة، لأن علوم الدين الإسلامية تجاوزها التطوّر العلمي، فلم تعد قادرة على التجاوب مع المتطلبات الحديثة لدراسة النّصين الإسلاميين المُؤسّسين، القرآن والحديث، ولا على دراسة مُجمل التراث الإسلامي، الذي ما زال بمنأى عن التحليل والنقد العلميّيْن، اللذين طُبّقا على تراث الأديان الأخرى، وخاصة اليهودية والمسيحية.

«التحديث من الداخل» غير منتج، وبصدد إصلاح الإسلام مثلاً



هو استحالة إبستيمولوجية. علوم الأديان الحديثة تكونت في مناخ الثورات العلمية والفلسفية والصناعية الحديثة. وليس لها أشباه ونظائر، في تاريخ العلوم، لا عندنا ولا عند غيرنا من أمم الجنوب. وهذه العلوم ليست نبتة أو حيواناً يمكن تدجينه بتكييفه مع البيئة الجديدة. هي مفاهيم ونظريات وقوانين علمية دقيقة غالباً، تدجينها مرادف لإجهاضها. إذن هي غير قابلة للتدجين. المطلوب هو دراسة تراثنا بها بطريقة إبداعية؛ درس المستشرقون بعض تراثنا بالطريقة الفيلولوجية، التي دُرس بها الكتاب المقدس، وترجم بها بلاشير القرآن ترجمة ساعدت كثيراً على كشف تناقضاته الداخلية، التي كثيراً ما تخفيها الترجمات الأخرى بما هي تأويل أي إعادة إنتاج للنص. قرأت 3 ترجمات إسلامية: ترجمة حميد الله، الصادق مازيغ وصلاح كشريد: لا أحد منهم لاحظ تناقضاً أي تشابهاً يجعل المعنى غامضاً؛ في المقابل، فإن بلاشير، وكذلك نولدكه، وضع مراراً علامة استفهام أمام الآيات والكلمات المتشابهات أي الملتبسات.

الخلفية الأيديولوجية، لشعار التحديث أو التجديد من الداخل، غير مقبولة علمياً أيضاً. فهي في الواقع تعبير عن «الخصوصية» العربية الإسلامية الشهيرة: نحن أمة استثنائية لا يصلح لها ما يصلح لغيرها من الأمم التي لم يكرمها الله بالإسلام... الله كلمنا لآخر مرة في التاريخ، فأعطانا الدين الحق، ولغتنا هي لغة أهل الجنة، وهما لا يقبلان الإصلاح إلا إذا كان من الداخل، وفي قول آخر أكثر انتشاراً، هما لا يحتاجان إلى أي إصلاح أصلاً: ألم يقل الله، «اليوم أكملت لكم دينكم»؟

نحن هنا أمام منطق عبادة الأسلاف النرجسي الإقصائي، السائد



لدى الشعوب البدائية أو ذات الذهنية البدائية، والذي آن لنا أن نخرج منه إلى منطق الشعوب الحديثة، أو ذات الذهنيات الحديثة، التي لا ترى مانعاً من استعارة العلوم الحديثة، دونما تشويه لمنطقها الخاص وصرامتها العلمية برغبات عصابية. شعار التحديث من الداخل، هو أحد أعراض عقاب الذات المتواصل منذ قرنين بتكرار التجارب الفاشلة. لا توجد أمة في العالم حدثت نفسها من الداخل. اليابان، منذ حكومة الميجي في القرن التاسع عشر، دشنت دخولها للحداثة باستعارة الحداثة الأوربية، فتبنت دستور بلجيكا وقوانينها الوضعية، وأدخل إمبراطورها الشوكة للأكل بدل العيدان اليابانية التقليدية، وأدخل الموسيقى الكلاسيكية بدل الموسيقى المحلية. لماذا فعلت اليابان ما عجزنا عنه؟ لأنها يتيمة حضارياً: بلا تراث أسلاف يردعها - مثلنا - عن تقليد الآخر «الكافر». لكن فكر بعض نخبنا السحري يفترض أن التحديث من الداخل ممكن بالنسبة لنا بفضل معجزة مّا؛ جاهلاً أو متجاهلاً أن الحداثة، كما تتطلب سوسيولوجيا المعرفة، هي كل لا يتجزأ. إما أن تأخذه أو تتركه. وقد تركناه لسوء حظنا طويلاً. فلماذا لا نحاول، ولو لمرة واحدة، أخذه عسى ولعل يساعدنا على الخروج من كابوس التأخر التاريخي، الذي أسقطنا في الهذيان شعوباً ونخباً، وجعل جرحنا النرجسي، أي شعورنا بالخصاء والإذلال والدونية، بعرض وعمق النيل والسين معاً. وكلما تعمق الجرح، تعمق عجزنا عن الشفاء منه، باسترداد الثقة بالنفس وتقدير الذات بفضل العمل اليومي من أجل التنمية الاقتصادية، والعلمية والثقافية، للحاق بقاطرة الحداثة.



2 ـ إعادة تعريف الإسلام بعلوم الأديان

سؤال: هل نجح تدريس علوم الأديان، في الديانات الأخرى، في تخليصها من الجمود والعنف الدينيين اللذين تعتبرهما مرضين من أمراض الإسلام المعاصر؟

جواب: إلى حد كبير. كل دين تقريباً، خاصة توحيدي، مسكون بالتعصب، الذي هو الابن الشرعي للنرجسية الدينية، التي يبثها في شعارات هُذاء العظمة. مثل نحن شعب الله المختار، ونحن خير أمة أخرجت للناس، أي نحن الفرقة الناجية. في التسعينات تعرفت على فرقة مسيحية من 120 شخصاً، ينتشرون في ستة بلدان، تسمّي نفسها مملكة النور، وتسمّي باقي سكان المعمورة مملكة الظلام، التي تقول عنها إنها ستلقى مصير صودوم، مدينة لوط، قريباً. لأن نهاية العالم اقتربت. وبالمناسبة هذيان نهاية العالم هو نواة الهذيان الديني، وهو عرض من أعراض الفصام. الديانات، التي أعيد تعريفها بعلوم الأديان، دَجّنت إلى حد كبير الميل إلى النرجسية الدينية والتعصب، بما هو رهاب المختلف، أي هيستيريا الخوف من الآخر. إعادة تعريف الإسلام بهذه العلوم قد يعطينا نتائج مشابهة. يتنافس اليوم أقصى اليمين الإسلامي السياسي والنُخب، شبه الحديثة الحاكمة، على حيازة مشروعية الذاكرة الجمعية الإسلامية. المنافسة في الواقع



محسومة لصالح أقصى اليمين الإسلامي. لأن الخطاب الديني، الذي تحشو به مدرسة اللامعقول الديني الذاكرة الجَمْعية السلفية، التي شعارها لا تصدِّقوا «إلاّ قال الله وقال الرسول»، أي حاربوا العقل والعلم بكلّ ما أوتيتم من قوة، يحمل الحَبّ إلى طاحونة الإسلام السياسي الذي هو اليوم أقصى يمين الإسلام.

بدلاً من خوض هذه المنافسة البائسة على امتلاك ذاكرة جمعية متقادمة، كان على النخب الحاكمة، لو كانت تعرف كيف تصنع قرارها، تبنّي مشروع إعادة تأسيس هذه الذاكرة الجمعية، بتدريسها بعلوم الأديان في مدرسة المعقول الديني. استطاعت الجمهورية الفرنسية الثالثة تجاوز الصراع الطائفي بين الكاثوليك والبروتستانت، بتدريس تاريخ ما قبل المسيحية لخلق هويّة جماعية يتعرف فيها جميع الفرنسيين على أنفسهم، تتعالى على الهوية الدينية، دون أن تنفيها، لكل من الكاثوليك والبروتستانت: القومية واللغة الفرنسية. بإمكان الدول العربية والإسلامية أن تستفيد من هذه التجربة، لتكوين هوية جماعية مشتركة أقوى من الهويات الدينية. وذلك بتدريس جميع مراحل تاريخها، بدلاً من الاقتصار على آخر مراحلة، التي هي المرحلة الإسلامية، جاعلة منها أَلِف تاريخها وياءه. بإمكان مصر مثلاً أن تدرّس الفترة الفرعونية والفترة القبطية... إلخ، إلى أن تصل إلى الفترة الإسلامية. في تونس يبدأ التاريخ من اللحظة القرطاجنيّة المُؤسِّسة مروراً بالفترة الرومانية، التي أثّرت في الإسلام التونسي ثم المغاربي؛ فقد أخذ فقهاء المالكية بعض أحكام القانون الروماني الذي أصبح عند السكان عرفاً وعادة. وأخيراً الحقبة الإسلامية التي كانت أكثر اللحظات الثلاث تأثيراً واستمرارية. وتونس جديرة بالاستلهام،



ويليق بالنخب الإصلاحية في أرض الإسلام استلهام تجربتها الإصلاحية الطويلة والثرية والناجحة، خاصة في تحرير المرأة من رق الأحوال الشخصية الشرعية.

سؤال: ما هي علوم الأديان القادرة على إصلاح الإسلام؟

جواب: علوم الأديان المطلوب تدريسها هي تاريخ الأديان المقارن، والسوسيولوجيا الدينية، والأنثروبولوجيا الدينية، وعلم نفس الأديان، واللنجويستيك [= اللسانيات]، والفيلولوجيا (علم اللغة) والهرمينوطيقا (علم التأويل)... وأُضيفُ إليها علماً آخر، لم يكن في الأصل من علوم الأديان ولكنّه غدا اليوم منها، أعني به علوم الأعصاب. كما أضيف الفلسفة، التي ليست علماً إلا أنها ينبوع الفكر النقدي الضروري للمقاربة التاريخية - النقدية للظاهرة الدينية، ولتحصين عقول الأجيال الجديدة ضد التعصب الديني؛ لكن هناك علوم قد لا يمكن تدريسها كعلوم أديان؛ لكنها أساسية لتفكيك الأساطير البابلية، التي ترجمها الأحبار خاصة في سفر التكوين، ومنه انتقلت إلى القرآن. هذه العلوم هي نظرية التطور، التي تفكك أسطورة خلق آدم وحواء من صلصال، بالرواية العلمية لميلاد الحياة، منذ 3,7 مليار سنة، من البكتيريا وحيدة الخلية في المحيط البدائي، والفلك الفيزيائي الذي يفكك أسطورة الكوسموليوجيا الدينية: خلق العالم في 7 أيام في سفر التكوين، وفي اليوم 7 استراح؛ وفي 6 أيام في آية وفي 8 أيام في أخرى في القرآن! وعلم الأركيولوجيا الذي عرّى الرواية الأسطورية التوراتية بخصوص تاريخ إسرائيل الديني: مثلاً داود شخصية شبه تاريخية؛ أما سليمان فشخصية أسطورية ابتدعها الخيال الشعبي العبري.



الإسلام ليس ديناً فقط، بل هو أيضاً مشروع سياسي - عسكري، قوامه الجهاد إلى قيام الساعة من أجل هدفين: إدخال البشرية فيه وقتل آخر يهودي، كما يقول حديث لا شك موضوع رواه البخاري. إصلاحه يتطلب تدريسه ودراسته بعلوم الأديان، لنزع القداسة عن السياسي والعسكري فيه، تسهيلاً لفصلهما عن الدين، المقدس الوحيد، وإلا كان الإصلاح مجرد لمسات تجميلية غير مجدية.

سؤال: بماذا تردّ على من يقول إن تدريس الدين بعلوم الأديان ينزع القداسة من الدين نفسه، عندما يجعل نصوصه موضوعاً للبحث مثل أي نص أدبي أو أسطوري؟ وهذا من شأنه تكوين مسلمين لامبالين بالدين، كما في أوربا وبقية البلدان التي يُدرَّس فيها الدين بعلوم الأديان؟

جواب: عدم تدريس الإسلام بعلوم الأديان، كما تُدرس به الأديان الأخرى في العالم، يعني أن نَدَعَ الناس في جهلهم يعمهون ليبقوا متديّنين. هذا خيار تجهيلي، أن يكون عندنا شعب من الجهلة المتديّنين، بدلاً من شعب من المتعلّمين والعلماء والمواطنين اللامبالين بالطقوس الدينية. قال ميخائيل نعيمة سنة 1951: «الدّين الذي يخشى من الشيوعية، الشيوعية خير منه». وبدوري أقول: الدّين الذي يخشى العلم، العلم خير منه. بعيداً عن السجال لننظر إلى الواقع. دراسة الدين بعلوم الأديان وتدريسها في المدارس والجامعات بدأت في أوربا منذ قرون. فماذا كانت النتيجة؟ أغلبية من المؤمنين الوَديعين والمتسامحين، مع الآخر والدين الآخر. 25 في المائة من اللامبالين، منهم 6 في المائة فقط من الملحدين المُقتَنعين. أما في الجمهورية



الإسلامية الإيرانية حيث كل شيء دين، في المسجد، والمدرسة، والجامعة، والإعلام، والشارع والبيت منذ الثورة، فماذا كانت النتيجة؟ 30 عاماً من الهذيان الديني، أعطت 30 في المائة من الملحدين. لماذا؟ لأنّ الإكثار من الدين يقتل الدين. الإفراط في الدعاية الدينية، كالإفراط في الدعاية السياسية، لا يوقظ تعاطف المتلقى، أي الجمهور، بل بالأحرى عداءه. الجمهور لا يتعاطف إلا مع من يوجد في موقع الضحية، لا مع من هو في موقع الجلاد: مثل حكام أقصى اليمين الإسلامي.

من دون هذه المقاربة العلمية، لن ننتقل من المقاربة التقريظية إلى المقاربة النقدية، ولا من التكفير إلى التفكير وإعادة التفكير فيما يطرحه علينا الدين والحياة من إشكالات. الخوف من ضياع الإيمان هو، في حد ذاته، عَرَض لشكّ الخائفين المكبوت في صحة إيمانهم. القرار التربوي الشجاع والذكي لا يبنى على المخاوف اللامعقولة، بل على المصلحة العامة المعرّفة تعريفاً دقيقاً والتي تجعل من الإصلاح الديني فريضة عقلانية.

سؤال: لكن بماذا تجيب القائلين بعدم إمكانية تطبيق علوم نشأت في بيئة غربيّة يهودية-مسيحية على النصوص الإسلامية، ألا يكون ذلك تعسّفاً بحق هذه العلوم وبحق الإسلام نفسه؟

جواب: ذلك ممكن تماماً. هذه العلوم، كجميع العلوم، أنتجها العقل البشري الكوني. كما أن علوم الطبيعة صالحة لكلّ مكان، فكذلك علوم الأديان، التي يَدْرس بها الهندوس الهندوسيّة والبوذيون البوذية. فلماذا لا يُدرس ولا يُدرَّس بها الإسلام، المنحدر من تلاقح



ثقافي عميق مع الديانتين اليهودية والمسيحية؟ معظم قصص الأنبياء في القرآن مأخوذة من العهد القديم. سورة يوسف مثلاً تلخيص مركّز لقصة يوسف في العهد القديم، وبالمثل في القرآن - تحت اسم الزبر والزابور - نجد آيات مقتبسة من نشيد الأنشاد، الذي بعض آياته مترجمة حرفياً من آيات «النشيد الأعظم» للفرعون أخناتون، الذي يؤكّد بعض الدارسين، خاصة كتاب «أسرار سفر الخروج» (الصادر سنة 2000 بالفرنسية وتُرجم في أكثر من 40 بلداً إلاّ مصر المعنيّة به أوّلاً)، أنّه إبراهيم التوراتي. يثرب أسّسها الفراعنة، في الألف الثانية قبل الميلاد، لحراسة طريق استيراد الأحجار الكريمة من ظُفار. فلماذا لا يكون إبراهيم المصري هو الذي وضع أُسُس الكعبة أيضاً؟ يفترض، مؤلّفا الكتاب أيضاً أن يوسف التوراتي هو رئيس الكهنة الأب «آي»، الذي قاد الانقلاب على التوحيد ونبيه اخناتون للعودة إلى وثنية آمون، ـ وآمين التوراتية والقرآنية مشتقة من آمون كما يعلمنا تاريخ الأديان المقارن ـ؛ والذي سيصبح فيما بعد فرعون، وأن موسى التوراتي هو رمسيس الثالث، الذي اصطحب، آلافاً من كهنة أخناتون الموحدين، إلى حدود فلسطين، التي كانت آنذاك محمية مصرية، لأن الكهنة في مصر لا يُقتلون فكان لا بد من إبعادهم إلى فلسطين. ربما كانت هذه هي القصة التاريخية لـ«الخروج» التخييلي التوراتي!، عموماً للأساطير خلفية تاريخية. ترجمة هذا الكتاب، ووضعه على الإنترنت، كفيل بإثارة نقاش علمي خصب، كم نحن في أشد الحاجة إليه، للخروج من النقاشات الزائفة وسجن المسكوت عنه الديني، الذي هو بمساحة خارطة أرض الإسلام.

أُلحّ إلحاحاً خاصّاً على ضرورة تدريس تاريخ الأديان المقارن،



ابتداء من الإعدادي إلى العالي، طبعاً بمناهج يُعدّها الأخصّائيون فيه، تكون ملائمة لكل مرحلة من مراحل التعليم. تاريخ الأديان المقارن قائم على مسلّمة قائلة: لا يمكن فهم عقائدَ وشعائر ورموز وأساطير الأديان الحيّة، مثل اليهودية والمسيحية والإسلام، إلاّ بمقارنتها بعقائد وشعائر ورموز وأساطير الأديان الميّتة التي تطوّرت منها، وخاصة الديانتين البابليّة والمصرية. تاريخ الأديان المقارن، بتنزيله الظاهرة الدينية في التاريخ، يجعلها قابلة للفهم تاريخيّاً وعلميّاً، أي بلا أسرار ولا ألغاز يقف أمامها العقل البشري عاجزاً عن السؤال والفهم. لا شيء كتاريخ الأديان المقارن وعلوم الاديان لتحرير المؤمنين من الرق النفسي لتراث الأسلاف، الذي جعل من كثير من فقهائنا موميات تراثية متحركة.

تقريباً، كل أمة لها أصول خرافية، جديرة بالاحترام بما هي أساطير ورموز مؤسسة لا تُقرأ قراءة حرفية. أما القبائل البدائية فهي الوحيدة التي تقرأ أساطيرها المؤسسة حرفياً. وهكذا تصبح ملكاً لتراثها، بدلاً من أن يكون تراثها ملكاً لها: تدرسه، تحلله وتنقده لتجعل علاقتها به شفافة. في المقابل، الأمم الحية تجعل دائماً مسافة بينها وبين أساطيرها المؤسسة؛ رومولوس، مؤسس روما وأول ملك أسطوري لها. لكن لا يوجد في روما المعاصرة من يعتبر أسطورته حقيقة تاريخية؛ في 1973، سألت بايع الصحف الفرنسية في باليرمو كان اسمه رومولوس: هل سميّك هو مؤسس روما حقاً؟ أجاب، لا هو أسطورة؛ في 2007 كنت، مع عبد المجيد الشرفي وهنريت عبود، وجورج طرابيشي، وصادق جلال العظم، وعزيزالعظمة، ونصرحامد أبو زيد، ومحمد أركون، في زيارة لضريح أخ بولس الرسول. سألت



المرشدة السياحية، وكانت مسيحية مؤمنة، هل هذا فعلاً ضريحه؟ قالت لا، شهداء المسيحية كانوا يُدفنون في مقابر جماعية او يتركون للوحوش.

قطاع واسع من المؤمنين اليهود والمسيحيين لا يصدق المعجزات، التي نسبتها رغبات وتخييلات المؤمنين القدامى لأنبياء ديانتيهما؛ بل ولا يصدقون المعجزة بما هي انتهاك لقوانين الطبيعة الصارمة. نبي الإسلام لم تكن له، باعترافه هو نفسه في القرآن، معجزة واحدة سوى القرآن، ومع ذلك نسب له خيال كتّاب السيرة والمحدثين معجزات أنبياء إسرائيل. وغالبية المؤمنين تصدق ذلك إلى اليوم. لماذا؟ اسأل عن الجهل والتعليم والإعلام الدينيين التجهيليين!

سؤال: هل بإمكان العقل أن يفكك كل الألغاز الدينية بعلوم الأديان؟

جواب: لماذا لا؟ وربما لا. وفي الحالين يجب إعطاؤه الحق في السؤال، السؤال محرّم في الإسلام التقليدي. استطاعت علوم الأديان، حتى الآن، تفكيك معظم رموز وأساطير العهد القديم. وما زالت الاكتشافات الأركيولوجية تقدم لها باستمرار المزيد، كما أنجزت ذلك الأركيولوجيا في إسرائيل وفلسطين وسيناء خلال الأربعين عاماً الماضية.

تمكين العقل البشري من فهم الظاهرة الدينية تاريخياً يجعلها نسبيّة. لأن كل ما هو تاريخي نسبي، يتطوّر ويتكيّف مع متطلّبات الحياة في كل حقبة وكل بلد. اكتشاف أمريكا كان المنطلق الحقيقي للإصلاح الديني في أوربا. ذلك أن وجود عقائد وشعائر دينية عند



سكّانها الأصليين، الذين لم تبلغهم الدعوة لا اليهودية ولا المسيحية، شكّل صدمة صِحيّة للوعي المسيحي، فاكتشف، ما تسمّيه الفينومينولوجيا وحدة الظاهرة الدينية، التي تتجلّى في الاعتقاد بوجود عالم الغيب، عالم متعالٍ ومقدّس ومسكون بالأرواح والآلهة. بالرغم من اختلاف المظاهر التاريخية التي تجلّت فيها هذه الوحدة الجوهريّة للظاهرة الدينية...

عندما يتعلم التلميذ أو الطالب أن الرموز الدينية واحدة، في الأديان الوثنية والتوحيدية؛ وأنّها انتقلت من الديانتين الوثنيّتين، البابلية والمصرية، إلى الأديان التوحيدية، فإنه يتعلم التسامح الديني وضرورة حوار الأديان، وينمو فيه الفضول المعرفي وحب البحث ولذة الاكتشاف. الأساطير البابلية انتقلت عن طريق إقامة اليهود في بابل، خلال السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، بترجمتهم للأساطير البابلية، في سفر التكوين، عن أصل الكون الذي خلقه سبعة آلهة في سبعة أيّام. من هنا أسطورة قداسة الرقم 7 في الديانة البابلية ثم في التوحيدية: سبع سماوات وسبع أرَضين؛ كما أن أسطورة «الزوجين الأوّلين، آدم وحوّاء»، انتقلت إلى سفر التكوين من الأساطير السومريّة، التي كانت تُسمّي آدم «أَدَبَا» أي الرجل المخلوق من صلصال، وآدم العبرية تعني «أديم الأرض» كما في العربية أيضاً... علماً بأنّ حزيقال، مترجم هذه الأساطير، تُخبرنا التوراة أنّه كان يأكل برازه، وهذا عَرَض من أعراض الفصام؛ أيضاً أسطورة طوفان نوح اقتبسها سفر التكوين من ملحمة جلجامش التي تقول مثلاً: «يا أتو بشتيم (الذي تُرجم إلى نوح) إبني سفينة واحمِل فيها اثنين من كل ذي حياة»، لمواصلة تناسل الأحياء بعد الطوفان؛ وكذلك مدينة لوط، هي



أيضاً أسطورة بابلية. بالمثل تبنّت اليهودية كثيراً من أساطير الديانة المصرية ومنها انتقلت إلى المسيحية والإسلام.

وهكذا، يعلم تاريخ الأديان المقارن أجيالنا الطالعة بأن الظاهرة الدينية تطوّرت، بتطور المعارف البشرية، من الإحيائية بما هي أول ديانة وثنية، إلى الأسطورة فإلى الدين. وأن الرغبة في الخلود، باختراع حياة أخرى بعد الموت، منذ بدأ الإنسان في العصر الحجري وربما أبعد، يدفن موتاه، تحضيراً لهم للعيش في عالم آخر. وهكذا، فالدفاع ضد قلق الموت، طمعاً في الخلود، كان وراء اختراع الخلود، كما يعلمنا ذلك علم نفس الأعماق.

بإمكان مدرسة المعقول الديني المنشودة، تنوير الأجيال الطالعة بحقيقة أن هذه الرغبة يمكن أن يلبّيها اليوم العلم تدريجياً، بجعل العلاقة بين الإنسان، وظواهر الطبيعة، والمجتمع، والنفس البشرية أكثر فأكثر شفّافة. أما الرغبة في الخلود فيمكن تلبيتها عقلانياً بالتقدم الطبي بالقضاء شيئاً فشيئاً على الألم والمرض والموت المبكر وتأخير الشيخوخة. الإنسان مبرمج جينيّاً ليعيش 120 عاماً. لكنه نادراً ما يصل إلى هذه السن بسبب عقابه لذاته بنمط حياته السيئ. بإمكان الطب اليوم أن يجعل مَن ولدوا في هذا القرن يعمّرون مائة عام وبصحّة جيّدة. كما أن إشباع غرائز الحياة بالقضاء على الحرمان، الذي فرضته تقاليد ميّتة ومميتة، يُلطّف الرغبة الهاذية في الخلود. بإمكان التحليل النفسي اليوم مساعدة الإنسان، الذي يتوهّم نفسه خالداً، على قبول فكرة موته بضمير مطمئنّ. وهكذا يمكن التخلص التدريجي من قلق الموت، محرّك الرغبة في الخلود. ويمكن إذن تقليص مساحة الهذيان الديني. عندئذ لن يرى المؤمن في موته اغتيالاً، كما كان يعتقد



لوفيناس، بل نهاية ضرورية لترك المكان لمن ولدوا بعده، لتواصل ملحمة الحياة مسارها. شخصياً فكرة خلودي لا تفرحني بل تثير قشعريرتي. في وضع بائس، أو في أرذل العمر عندما تفقد الحياة معناها، يكون الموت أو الانتحار خلاصاً.

سأقدم هنا عينات عن الأهمية الاستثنائية لتدريس تاريخ الأديان المقارن، الذي يجعل الظاهرة الدينية شفافة، عبر تفكيكها والإضاءات التي يلقيها على تطور الدين، ورموزه، وشعائره، وعقائده عبر صيرورته التاريخية منذ العصر الحجري الحديث. إليكم هذه الأمثلة من كتاب مرسيا إياد: «تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية»، [علمت الآن وأنا أملي هذه الصفحة أن هذا الكتاب الضروري مترجم إلى العربية، وفضلاً عن ذلك، منشور على الشبكة العنكبوتية وكنت قد شجعت على ترجمته، فشكراً لمترجمه عبد الهادي عباس وناشره على الشبكة]: «الاعتقاد السحري، الذي ما زال شائعاً في أرض الإسلام، القائل بأن الله غضب على اليهود فمسخهم قروداً وخنازير: «وجعل منهم القردة والخنازير» (المائدة 60)، هو خرافة منحدرة من «عصر الصيادين البدائيين، الذين كانوا يعتقدون بأن الإنسان يمكن أن يتحول إلى حيوان والعكس صحيح» (المصدر المذكور صفحة 18 بالفرنسية)؛ المسلمون يدفنون الميت جاعلين رأسه متجهاً إلى الشرق، كما كان يفعل البدائيون منذ ليل التاريخ: «من أجل ربط الميت بمجرى الشمس أملاً في ولادة ثانية بعد الموت أي في البعث» (صفحة 22)؛ القبائل البدائية في أمريكا تكفن موتاها في «أكفان بيض» (نفس الصفحة)، رمز الطهارة كما يفعل المسلمون اليوم؛ منذ أكثر من 20 ألف عام، قدس البدائي المكان: «الرسوم توجد بعيداً بما فيه الكفاية عن مدخل الغار.



استنتج الباحثون من ذلك أن الغار نوع من الأماكن المقدسة (. . .). في العصر الحجري الحديث، عرف الشرق الأوسط الأماكن المقدسة»؛ الفصل بين الجنسين، الذي جعل منه أقصى اليمين الإسلامي قضية شرعية غير قابلة للتفاوض، هو تقليد همجي يعود إلى العصر الحجري. فقد عثرت الحفريات: «على قرية في مالطة وأستراليا كانت ديارها مقسمة إلى نصفين، الأيمن للرجال به أدوات خاصة بهم، والأيسر مخصص للنساء به تماثيل صغيرة لهن» (صفحة 31)، منذ أكثر من 4 آلاف عام اعتبر البابليون أن قصور ملوكهم مشيدة في مركز الأرض. وكذلك كان البدائيون يعتبرون: «مركز العالم هو المكان المخصص للشعائر والصلوات» (صفحة 54). المغزى: ليست مكة وحدها هي المبنية، تخييلاً طبعاً، في مركز الأرض، وفي رواية في مركز الكون؛ أسطورة السلف الصالح والجنة راجت منذ العصر الحجري المتوسط: «فكرة السلف الأسطوري وعبادة الأسلاف سيطرت منذ العصر الحجري المتوسط الأوربي. فمن المرجح أن هذا الاعتقاد الديني تفسره ذكرى الحقبة الجليدية عندما كان الأسلاف الأباعد يعيشون في: «جنة الصيادين» (صفحة 43).

سأقدم أيضاً مثلاً آخر عن خصوبة دراسة وتدريس الدين بتاريخ الأديان المقارن: كشف الأستاذ بالكوليج دي فرنس، توماس رومير، في كتابيه: «موسى الذي عرفه يهوا وجهاً لوجه» و«موسى ذو القرنين»، بأن موسى، مؤسس اليهودية، الذي جاء ذكره في القرآن 106 مرات، شخصية رمزية. كتب رومير: «قصة ميلاد موسى تشبه عن قرب قصة ميلاد الملك الأسطوري الآشوري، سرجون. الاثنان لا يعرفان أباهما؛ أمهاتهما أخفتهما أول الأمر ثم ألقتهما في نهر. الاثنان



وضعا في صندوق طُلي بالقار. كلاهما عثر عليهما وتبناهما فاعلا خير. هذا التبني شرعن ملكية سرجون وأدخل موسى إلى بلاط فرعون (. . .) قصة سرجون كتبت على أكثر تقدير في القرن 8 ق. م. تاريخ موسى الأول لا يمكن إذن أن يكون متقدماً عن هذه الحقبة. كتبة مملكة يهودا بنوا صورة موسى على صورة المؤسس الأسطوري للأسرة الآشورية. للمطالبة بتفوق الإله الذي يخدمه موسى. في ختام القصة نجح يهواه وموسى في قهر مصر، وهو ما لم ينجح فيه الآشوريون رغم المحاولات المتكررة (. . .)».

كما استلهم الأحبار أسطورة جلجامش في سفر التكوين، واستلهموا المعاهدات التي عقدوها مع الآشوريين في سفر التثنية، معوضين شرط انتقام الملك الآشوري منهم، إذا أخلّوا بشرط الطاعة له، بانتقام يهواه منهم إذا أخلوا باحترام وصاياه في سفر التثنية، استلهموا أيضاً أسطورة سرجون لينسبوها لموسى بما هو أسطورتهم المؤسسة؛ كما يؤكد ذلك أستاذ الأديان المقارنة في الكوليج دو فرانس، توما رومير، في كتابيه: «موسى ذو القرنين»، و«موسى الذي عرفه يهواه وجهاً لوجه». [دار جاليمار، باريس 2002].

حقائق تاريخ الأديان هذه، تساعد التلاميذ والطلبة على فهم تكوّن الظاهرة الدينية تاريخيّاً. وبذلك تقطع الطريق على اليقين الديني الأعمى، الذي هو الأب الشرعي للنرجسية الدينية والعنف الديني. وهذا يساعد على التّديّن المعتدل والإيمان المستنير، الذي هو جسر لحوار الأديان والثقافات. قلّما لا يعترف من درس تاريخ الأديان المقارن بجميع الأديان على قدم المساواة، لأنّ بُنيتها واحدة وأصلها واحد. فقد تطورت بعضها عن بعض عن طريق التلاقح الثقافي.



القاعدة الذهبية للسلام مع النفس هي: اعرف نفسك واعترف بها، كما يوصينا بذلك علم نفس الأعماق؛ والقاعدة الذهبية للسلام مع الآخر هي: اعرفه واعترف به كما هو، كما يوصينا بذلك تاريخ الأديان المقارن، التي يتوقف عليها السلام العالمي. ولا شيء كتاريخ الأديان المقارن لتحقيق هذه المهمة.

السوسيولوجيا الدينية تعلّم الأجيال الجديدة أن الدين ظاهرة اجتماعية، وككل ظاهرة اجتماعية، هو موضوع للبحث والتحليل؛ العلميين. وأن التطور الاجتماعي هو الذي يفرض على الدين التكيّف معه وليس العكس. أي أن المستجدّات التاريخية تعدّل أو تنسخ أحكام النصوص الدينية. وعندما يرفض الفاعلون الاجتماعيون تكييفه مع المستجدّات التاريخية، فإنهم بذلك يُحوّلون الدين إلى جمود ديني يعيق التطور التاريخي للجماعة المؤمنة. وهذا ما حدث للإسلام منذ أكثر من 9 قرون. كما تُعلّم المؤمن أن يلعب دوْرين، دور المؤمن ودور الباحث. من حقه كمؤمن عندما يصلّي أن يتماهى مع النص، وعليه كباحث أن لا يتماهى مع النص بل أن يقف منه موقف الحياد العلمي، حتى يجعل البحث الموضوعي فيه ممكناً. وهو ما نجده مثلاً عند الفيلسوف الفرنسي المؤمن بول ريكور، أو عند الفلكيين الفيزيائيين المؤمنين، الذين يعترفون بأن إيمانهم لا تدعمه حقائق العلم، بل هو مجرد قناعة ذاتية ورهان. سألت بيولوجيست فرنسي مرّة، كيف وفّقتَ بين علمك وإيمانك؟ أجاب: عندما أدخل الكنيسة، أترك علمي في غرفة الملابس، وعندما أدخل المختبر، أترك إيماني في غرفة الملابس. وهذا هو نموذج المسلم المؤمن الذي يمكن أن تنتجه دراسة الإسلام بعلوم الأديان. في اليهودية والمسيحية، يوجد



تمييز بين دين الإيمان، كمجال خاص لممارسة الشعائر، وبين دين التاريخ، كمجال عام للسؤال والبحث العلمي. يمكن بالإصلاح الديني أن نصل إلى هذا التمييز في الإسلام أيضاً. وهي محطة ضرورية لعقلنة الإسلام، وتبعاً لذلك لإشاعة العقلانية في المجتمعات الإسلامية الغارقة في الهذيان، حتى بات بإمكاننا التأكيد أننا أمة تهذي. النواة المركزية للهذيان الديني الفُصامي هو هذيان نهاية العالم. في استطلاع لمسلمي أفريقيا جنوب الصحراء قال 52% من المسلمين المستطلعين إن الخلافة ستقام بعد فترة قصيرة وخلال حياتهم! كان القديس بولس يعتقد أن المسيح سيعود في حياته، وكان نبي الإسلام يعتقد بأن الساعة ستقوم في حياته ولذلك لم يوصي [للتذكير، لم أجزم بلم لأن الأبجدية العربية فقيرة في الصوتيات والجزم بلم يزيدها فقراً على فقر] بمن يخلفه! لقد جاء، كأسلافه أنبياء إسرائيل، : «لينذر عشيرته الأقربين» باقتراب نهاية العالم: «اقتربت الساعة» [1، القمر]، «وما يدريك لعل الساعة تكون قريبة» [63، الأحزاب]، ويحذر نبي الإسلام مشركي قريش من أن: «الساعة ستأتيهم بغتة» [55، الحج].

التحذير من «نهاية العالم» هو النواة المركزية لهذيان «نهاية العالم» الديني الفُصامي، كما يؤكد الطب النفسي؛ وهذيان نهاية العالم ملازم لجميع الأنبياء القدماء والمعاصرين، مثل أنبياء ساحل العاج في الستينات.

سؤال: ما سبب هذا الهذيان اليوم؟

جواب: ربما كان السبب الأول هو صدمة الحداثة، التي عجزت الشخصية النفسية الجمعية الإسلامية عن امتصاصها. الصدمة العنيفة



تجعل المصدوم ينقلب من العُصاب إلى الذّهان. المحلل النفساني فتحي بن سلامة يردّ هذا الهذيان الجماعي إلى ما أسماه د. عبد الصبور شاهين «التناقض بين القرآن والعلم». هذا الهذيان مرشح للتفاقم. في هذا الشهر استطاع باحث أمريكي صنع الحياة مخبرياً. أي صنع بكتيريا حية حاملة لآلاف الجينات، تتوالد وحدها انطلاقاً من مواد كيميائية. صانعها الوحيد هو الكمبيوتر. وهكذا غدا صنع كائنات حية نباتية وحيوانية مطروحاً على جدول الأعمال... إذا كان الاستنساخ قد أدخل فقهاءنا وجمهورهم في البارانويا الجماعية، فكيف سيفعل بهم صنع الحياة مخبرياً؟

من هنا، ضرورة الفصل بين الدين والعلم. الحقيقة الدينية ذاتية، لا تفرض نفسها إلا على المؤمن بها، لذلك فهي خاصة به. أما الحقيقة العلمية، فهي موضوعية تفرض نفسها على كل ذي عقل سليم، وتسندها المعطيات الموضوعية وتشهد على صحتها التجربة العلمية.

سؤال: ما العمل؟

جواب: تحليل نفسي جماعي يتكفل به إصلاح ديني شجاع: يفصل بين القرآن والعلم. وهذا ما اقترحه الشيخ متولي الشعراوي في كتابه «معجزة القرآن» قائلاً: «إن الذين يقولون إن القرآن لم يأتي ككتاب علم صادقون. ذلك أنه كتاب أتى ليعلمني الأحكام ولم يأتي ليعلمني الجغرافيا أو الكيمياء أو الطبيعة». هذه الكلمات جديرة بأن تكتب بماء الذهب، ويدرسها أبناؤنا منذ الابتدائي.

السوسيولوجيا الدينية تعلّم التلامذة والطلبة كيف يحلّلون التعاليم والنصوص الدينية في علاقتها بسلوك المتديّنين، ومدى تأثيرها فيهم



إيجاباً أو سلباً، وما هي الحاجات الفعلية أو التخييلية التي تلبيها لهم، وكيفية توظيف الفاعلين الاجتماعيين للدين، ولأيّة أهداف وفي أي مكان وزمان. مثل هذا الفهم، للنصوص في سياقاتها التاريخية، يساعد على تطوير السلوك الديني وتوجيهه للمجال الخاص، أي العائلة والجمعية والمسجد، ليبقى المجال العام مفتوحاً لممارسة القيم المشتركة بين المواطنين جميعاً على اختلاف طوائفهم وأديانهم. القيم المشتركة هي قيم حقوق الإنسان الكونية، التي أنتجها العقل البشري للعقل البشري؛

وتعلمهم أنّ النص الديني لا ينطق بنفسه، بل ينطق به الفاعلون الاجتماعيون، مدفوعين بمصالحهم المادّية والسياسية أو أيضاً بهذياناتهم، فبين الدين والهذيان علاقة وثيقة، كما رأينا في هذيان نهاية العالم عند الأنبياء. وهكذا نجد الآية الواحدة، أو الحديث الواحد، فسّرتهما كل فرقة بما يتناسب مع معتقداتها السياسية أو الدينية؛ كما تعلّمهم أن الدين، أي المتدينين، محافظ يرفض التجديد. وهذا ما جعله في صراع دائم مع التجديد الديني، والفكري، والعلمي، والأدبي والفنّي، حسبنا تَذكُّر حديث «كل جديد بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»؛ كما تعلمهم أن العلمانية هي المخرج الوحيد الممكن من هذا المأزق: بجعل الدين لله والوطن للجميع كما قال سعد زغلول، حتى لا يسقطوا في حروب طائفية ودينية مدمرة.

الأنثروبولوجيا الدينية تعلم تلامذتنا وطلبتنا أن النصوص الدينية هي بنت المناخ الثقافي الذي ظهرت فيه. فهي إذن نسبية، وتتغيّر بتغير أسلوب حياة الناس وعقلياتهم، فتغدو متقادمة أي تجاوزها الزمن.



وهكذا تصبح النصوص، خاصة المتعلقة بالمعاملات والشريعة والعلم والتاريخ. . . إلخ، موضوعاً للدراسة العلمية ليس إلا. وهذا ينطبق على الفقه الإسلامي، الذي غدت أحواله الشخصية وعقوباته الشرعية فضيحة، بل وجريمة في عصر ثقافة حقوق الإنسان، التي صانت كرامة الإنسان، وفرضت حُرمة جسده، واعترفت له بقائمة من الحقوق غير المسبوقة في تاريخ البشرية، كحرية الاعتقاد أي تغيير الدين، وحرية الضمير أي عدم الأخذ بأي دين، وحرية التعبير والتفكير بعيداً عن كل رقابة دينية أو دنيوية. مثلاً كيف تُطبّق إيران أو السعودية أو السودان عقوبة الرجم، والحال أن البلدان المتحضّرة نسخت حتى عقوبة السجن في الزنا بما فيها حكومة تركيا الإسلامية؟

أليست فضيحة، وجريمة في وقت واحد، رفض المحكمة الشرعية العليا في السعودية سنة 2008 فسخ زواج كهل (58 عاماً) مع طفلة في الثامنة، بحجّة أن النبيّ تزوّج عائشة في التاسعة؟ وأمّ الفضائح والجرائم، في حق حقوق الإنسان، هي بقاء السعودية وباقي الدول العربية، باستثناء تونس والمغرب، حتى الآن من دون قانون أحوال شخصيّة حديث يمنع زواج - اغتصاب الأطفال، وتعدّد الزوجات، والطلاق الانفرادي، والتفاوت في الشهادة والإرث؛ كما يمنع الإرث بالتعصيب محاكاة لتونس، الرائدة في رفع المظالم عن المرأة.

سؤال: كيف ألغى الحبيب بورقيبة الإرث بالتعصيب؟

جواب: كان ذلك، إن صدقتني الذاكرة سنة 1967، عندما توفي أب تاركاً كوارث ابنة واحدة. بحثت المحكمة أسابيع عن قريب لإعطائه نصف التركة. وأخيراً عثرت عن قريب بعيد له، لم يلتقي به



قط ولم يسمع حتى بموته، فأعطته نصف التركة. أعلم وزير العدل بورقيبة بالواقعة، فأصدر قانوناً يلغي الإرث بالتعصيب، جاعلاً البنت ترث كل التركة. إذا كان الإسلام اليوم معزولاً، وفي صدام مع العالم، ومع قطاع متزايد باستمرار من المسلمين أنفسهم، فذلك لأنه ما زال لم يكيف نفسه باغجيورنامانتو مع حقائق العالم الذي يعيش فيه.

المظالم الشرعية التي سلّطها الفقهاء، المعادون للمرأة، على المرأة منذ قرون، لم يعد لها اليوم أي مبرر أنثروبولوجي في العالم الذي نعيش فيه: عالم ثقافة حقوق الإنسان التي اكتسبت في الوعي الجمعي للبشرية، وفي وعي قطاع متزايد من المسلمين، شرعية وقداسة الدين.

أمراض الإسلام اليوم كثيرة، منها عداء المرأة، وغير المسلم، والفن، والبحث العلمي. مثلاً التعصب الوهابي في السعودية دمر معظم الآثار الإسلامية، وما زال يحظر التنقيب الأركيولوجي في مكة والمدينة المحظورتين، على الباحثين الأجانب، لغايات علمية يتطلبها كشف الآثار الباقية من تاريخ ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام، وما زال هذا التعصب عائقاً أمام وضع حد لتدمير الآثار الإسلامية منذ 1933، وآخرها مطالبة شيوخ الوهابية، في 2005، بتحويل بيت خديجة إلى مرحاض عمومي... فهذه الآثار جزء من ذاكرة البشرية وتقدم للعلم والتاريخ خدمات ثمينة. إهمالها وبالأحرى إتلافها جريمة في حق هذه الذاكرة، وفي حق العلم وفي حق تاريخ الإسلام، الذي ما زال التنقيب الأثري لم يقدم إليه إسهامه الضروري لغربلة الروايات الشفوية، التي تختلط فيها الحقيقة بنصف الحقيقة وبعكس الحقيقة متحدية الباحثين بأن يميزوا بينها.



3 ـ الجنّة رمز لرحم الأم

يقدّم تدريس علم نفس الأديان للتّلميذ والطالب إضاءة أخرى ثمينة، تساعده على فهم الجذور النفسية للظاهرة الدينية. مثلاً ماذا يقول علم نفس الأديان عن الظاهرة الدينية؟ إنها اسقاط نفسي: فقد اكتشف الإنسان الاعتقاد في كائنات ما فوق طبيعية، آلهة ثم إله، منذ ليل التاريخ، عبر إسقاط صورة أبيه، رمز الحماية والحب، على أب آخر في السماء يقف إلى جانبه في أيام البأس واليأس، ويقدم له العزاء والسلوى في الشدائد والمحن. وليس مصادفة أن القبائل البدائية تسمّي الله «الأب الذي في السماء» وكذلك يسمّيه المسيحيون. كما يعطيه الطريقة لتأويل الرموز الدينية والأسطورية، كخلق حواء من ضلع آدم، حسب أسطورة سفر التكوين، التي تأوّلها فرويد بما هي تخييل استمنائي، وكالجنّة، التي أوّلها فرويد بالحنين اللاشعوري لإقامة الجنين في رحم أمّه: وصف النفساني، جروند بيرجر، مشاعر الجنين المطرود من الرحم بالولادة، يذكرنا بأسطورة طرد آدم من الجنة قائلاً: «يحتفظ الجنين للعالم الآخر، الذي طرد منه، بالحنين؛ احتجاجه على طرده منه يعبّر عن الحنين إلى الكمال والنعيم والبراءة». أما النار فيمكن تأويلها، في نظري، بأنها ذكرى مؤلمة لصدمة الولادة، وصدمة قطع حبل الصرة، وصدمة الفطام وأخيراً، بالنسبة للمسلمين واليهود،



صدمة الختان. وكلها مفاجآت غير سارة سببت للطفل، منذ الولادة، اضطرابات بيولوجية ونفسية دائمة. كما يكشف لنا علم نفس الأعماق التشابه العميق بين اضطرابات الوسواس القهري، والشعائر الدينية كالصلاة والطهارة: مثلاً الاغتسال الكامل للتطهر من النجاسة بعد النكاح، أو الاحتلام؛ والوضوء، بعد التغوط والتبول أو الفُساء والضراط، أو حتى مجرد لمس القضيب سهواً، تشبه، بل ربما تماثل أعراض اضطرابات العصاب الوسواسي القهري، الذي يتجلى في وسواس النظافة، مثل غسل المريض يديه أكثر من 100 مرة في اليوم لتنظيفهما من الأوساخ أو الميكروبات... إلخ! من الزاوية السيكولوجية، العصاب الوسواسي القهري هو دفاع ضد الجنون؛ من الزاوية البيولوجية، هو عرض لاختلال بعض وظائف الدماغ، مما يجعل علاجه بالأدوية ممكناً، مخلّصاً هكذا المؤمن من التكرار اليومي أو الدوري لشعائر سقيمة ومؤذية، كترك الطالب دروسه، والعامل عمله للصلاة، أو انهيار الإنتاج والصحة في شهر رمضان، أو متاعب وتكاليف ومخاطر العدوى بالأمراض بالحج...

شيوخ الإسلام المستنير لا يرون غضاضة في تبنّي التفسير النفسي لظواهر الدين؛ مثلاً الشيخ خالد محمد خالد تبنّى في كتابه «من هنا نبدأ» (1950)، تفسير علم نفس الأعماق للشيطان: بأنه رمز اللاشعور حيث ترقد الغرائز العدوانية، والرغبات الجنسية المكبوتة، وفي مقدمتها الرغبة في الاغتصاب الراسخة في نفسية الذكور.

اللّسانيات: كما يعلمنا علم نفس الأعماق، بأن الواقعة الخام غير موجودة، لأن الواقعة ترافق عادة بإسقاطاتنا اللاشعورية عليها؛ بالمثل تعلمنا اللسانيات أن كل نصّ هو تقريباً تناص، أي تلاقح نصوص عدة



على مر التاريخ، وهو مجاز، لا يجوز أن يُقرأ قراءة حرفية، وأنّه، كما قال ابن عربي في فتوحاته: «ما في الكون كلام لا يُتَأَوَّل». النص، والكلام عامة، الوحيد الدلالة لا يكاد يوجد. خاصة في الدين حيث يتفشى الفصام بين فاعليه، سواء أكانوا أنبياء أو رجال ونساء دين. وهذا ما جعل النصوص الدينية غالباً فضفاضة أي مزدوجة الدلالة: تحتمل الشيء ونقيضه، بل هي أحياناً هذيان مغلق عن الفهم، مثل الآيات المتشابهات وحتى النصوص الدنيوية المبهمة كبعض كتابات، ألان بو، أو بعض أشعار وكتابات المعري. من الواضح أن اللغة، منذ البداية، كانت فصامية، تكثر فيها أسماء الأضداد لأن الإنسان البدائي، وامتداده الإنسان التقليدي، اللذين تكلماها، كانا مسكونين بالفكر السحري والالتباس اللغوي، حيث الكلمة لها معنى أول ومعنى ثان. لهذا السبب نجد أن المصطلحات العلمية والتكنولوجية خالية من رواسب لغة ما قبل العلم، التي تنقصها الدقة. تخلّف دراسة العلوم في الفضاء العربي، عائد، في المقام الأول، إلى غياب المصطلحات العلمية في العربية. فما زال متكلموها يرفضون إعطاء الجنسية اللغوية للمصطلحات العلمية والتكنولوجية الحديثة، لمجرد أنها «دخيلة»، إذ إن الذهنية العتيقة لا ترضى عن الأصيل بديلاً!

القراءة الحرفية السائدة تعاملت مع لغة النصين المؤسسين، القرآن والحديث، كما لو كانت مصطلحات علمية وتكنولوجية لا تحتمل إلا معنى واحداً وحيداً، والحال أنها متعددة المعاني والإيحاءات المتناقضة كثيراً وغالباً. لذلك هي في حاجة ماسة إلى التأويل بمفهومه اللساني والهرمينوطيقي، الذي هو قبر القراءة الحرفية للنص، والتي هي أحد أمراض الإسلام المزمنة.



الفيلولوجيا موضوعها هو الفهم الموضوعي للحضارات القديمة، من خلال التحقيق والتحليل النقديين لنصوصها الأسطورية والأدبية والدينية، للتحقق من صحة النص. بها استطاع المستشرقون تحليل وتحقيق وترجمة نصوص الإسلام، كنولدكه وبلاشير مثلاً.

التحليل الفيلولوجي للكلمات لا يساعد على تدقيق معانيها في سياقاتها التاريخية وحسب، بل يلقي أيضاً أضواء على حقائق تاريخية، وأنثروبولوجية وسوسيولوجية ثاوية فيها. مثلاً كلمة بوليموس الإغريقية، تعني الحرب؛ وهي مشتقة من بوليس أي المدينة ـ الدولة. استنتج الباحثون من ذلك أن الحرب، في اليونان على الأقل، ارتبطت بظهور المدينة ـ الدولة.

سؤال: ما المقصود بالهرمينوطيقا؟

جواب: هي تأويل النصوص، والرموز، والأساطير الدينية والدنيوية. فهي تعلمنا أن النصوص والرموز خاصة، الأسطورية والدينية، فضفاضة ومتشابهة تحتمل معاني عدّة، متناقضة غالباً، مصداقاً لقول الإمام علي «القرآن حمّال أوجه»، إذن يسمح بأكثر من قراءة واحدة. وتساعد تلامذتنا وطلبتنا وباحثينا على استخراج المعاني الأسطورية والرمزية الكامنة في النص، بنقله من الإبهام إلى الوضوح لجعله مفهوماً. التأويل، عكس التفسير العلمي، ليس منتجاً لمعرفة علمية موضوعية، تفرض نفسها على الجميع، بل هو تأمّل فلسفي أو صوفي. النص الديني برموزه يفتح آفاق تأويل لا حدود لها للقارئ، الذي يحيّنه حسب عالمه المعيش، ليعيد امتلاكه بإعطائه المعنى الذي يلائمه. وهذا ما نراه في التفاسير التي هي تأويل للنصّ القرآني. فيها



يلتقي عالَم الآية والعالم المعيش لكل مُفسر وقارئ، مصداقاً لقول ابن عربي «ما في الكون كلام لا يُتأول». فعلاً لأن التأويل هو مفتاح قراءة ما يقال أو يكتب تحت إملاء اللاشعور؛ حتى النوطات الموسيقية تحتاج إلى تأويل. مثلاً باخ، كما يقول مؤرخو الموسيقى، كتب في مخطوطاته الروابط بين النوطات، بسرعة كبيرة، حتى غدا من المستحيل أحياناً معرفة مكانها الحقيقي، فيضطر عازفوه - يسمون باللغات الأوربية مؤولوه ـ إلى الاجتهاد في تنزيل الروابط. حالة باخ هي حالة الفنانين، والأدباء، والشعراء، والمتصوفة والأنبياء، الذين تتزاحم في رؤوسهم الأفكار والصور والإلهامات والرموز والمجازات، على نحو يجعلهم يتحكمون بالكاد في تنظيمها. من هنا ضرورة الهرمينوطيقا، أي التأويل، لدخول عالمهم الغني بشتى المدلولات والهذيانات المبهمة، والمتشابهة أي المتعارضة. يقول بعض الباحثين أن 94 في المائة من آيات القرآن متشابهات إذن في حاجة إلى علوم التأويل الحديثة لتفكيكها لجعلها قابلة للفهم.

القراءة الهرمينوطيقية تمر بثلاث درجات: تبدأ بالمعنى الحرفي، لتبرهن على أنه غير مقنع غالباً، منتقلة إلى روح النص، أي إلى معانيه المفهومة وأخيراً إلى الدرجة الثالثة القراءة المجازية للنص، حيث يتجاور عالم مؤلف النص مع عالم قارئ النص، في حوار قوامه الإيحاء والاحتمال والترجيح. القراءة الهرمينوطيقية مارسها في الإسلام المتصوّفة. تفسير ابن عربي هو أحد نماذجها الأكثر نضجاً؛ تأويله هو في الواقع إعادة انتاج للنص القرآني، كما برهن على ذلك في تفسيره الصغير، الذي لا يُدرس على حدّ علمي في أي كليّة دينية إسلامية!

أضيف إلى علوم الأديان، علوم الأعصاب، التي تَدرُس تركيب



الدماغ ووظائف وآليات اشتغاله. اكتشافاتها في هذا المجال غيّرت راديكالياً المفاهيم الدينية القديمة. مثلاً ظلّت البشرية، منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، تعتقد أنها تفكر وتؤمن بالقلب، إلى أن كشفت البيولوجيا العصبية أن الإنسان لا يفكر بقلبه بل بدماغه، وتحديداً بقشرة الدماغ، أي الخلايا العصبية: النورونات المُنتجة للتصورات الذهنية من مشاعر، وأحاسيس، وانفعالات وأفكار... كل خلية، من المائة مليار خلية عصبية في دماغنا، تقوم بوظيفة محددة. مثلاً خلايا القشرة الجبهية، وهي متطورة جداً عند الإنسان، قياساً على ابن عمّنا الشامبانزي، متخصصة في الفكر العقلاني؛ خلايا الفصّ الصدغي الأيمن متخصصة في إنتاج الظواهر الدينية، كالإيمان والتأمل الروحي، والوحي والنبوة والوجد الصوفي: إذا كان الطب النفسي يفسر ظواهر الوحي عند الأنبياء بالهذيان الديني، الذي نواته هذيان نهاية العالم زائد الهلاوس السمعية أو السمعية البصرية، كرؤية جبريل مثلاً، فإن علوم الأعصاب تفسر الوجد الصوفي، أي الحضرة، بما هو حالة دماغية تمنع مراكز المخ، التي تُجري في الأوقات العادية فصلاً بين الأنا والعالم، عن القيام بوظيفتها؛ الوجد قادر على تخفيف نشاط مراكز المخ، التي تعيدنا إلى فرديتنا، إلى أنانيتنا. بالمثل، يفسر ظاهرة الدراويش، الذين يمشون حفاة على الجمر، بأن الهيستيريا تمنع العصب الناقل للألم من الاشتغال، تماماً كالبنج. وهكذا فعلوم الأعصاب واعدة بمقاربة بيولوجية ناجعة «للأسرار الروحية»، تساعد العقل على فهم كيفية اشتغال المشاعر والانفعالات وتالياً التحكم فيها.

اكتشافات علوم الأعصاب تاريخية وجديرة بأن يتعلمها تلامذة وطلبة التعليم الديني، لتنويرهم وإنقاذهم من التجهيل المنظم، الذي



تحشو به التربية الدينية التقليدية، في مدرسة اللامعقول الديني، أدمغتهم لإبقائهم رهينة لأساطير ما قبل تاريخ العلم. تعليم ديني يَستنير بالعلم هو الكفيل بتخليصنا من مدرسة اللامعقول الهاذي وشياطينها: من التعصب إلى الإرهاب المعولم، مثل فتاوى إهدار الدماء المحرضة على تفجير الأحزمة الناسفة في المُصلّين الشيعة في العراق، وفي المراهقين الإسرائيليين المُصطفّين لدخول المرقص!

تدريس علوم الأديان، ودراسة الإسلام بها، سيُعلم الأجيال الجديدة - عكس الأجيال التي كانت ضحية القراءة الحرفية - مُقاربة النصوص باعتدال ومعقولية. فلا تعود تردّد كالببغاء مع ابن حزم: «إن نصوص القرآن والحديث تُطاعُ لذاتها لا لِعِللها»، بل سيضعون مكان كلمة «تُطاع» كلمة «تُفهم لِعللها لا لذاتها». وهكذا يصبح المطلوب فهم النص، وليس الاستسلام للنّص صُمّاً وعِمياناً، الذي هدم كل أساس معقول للحياة الاجتماعية والدينية، إلى درجة السقوط في الهلاوس، والتخييلات، والهذيانات الفردية والجماعية التي نعيشها اليوم. علوم الأديان مُجتمعة تقدم لنا معرفة موضوعية عن الدين، تساعدنا على فهمه وتفسيره للتعامل معه بعقلانية، أي بفكر يتساءل ويفحص بعيداً عن الرقابة الدينية المفروضة أو الذاتية. وباختصار، فكل علم من علوم الأديان يلقي أضواء كاشفة على الظاهرة الدينية؛ في الواقع، علوم الأديان مثل أشعة الليزر، بما هي شعاع ضوء قوي، تجعل الذرات شفافة؛ بالمثل، علوم الأديان تجعل الدين بما هو إنتاج ثقافي شفافاً.

علوم الأديان هي الوحيدة الكفيلة اليوم بجعل الإسلام متحضراً، أي متصالحاً مع حاجات ومتطلبات عصره مثل حوار الأديان. ولا



شيء كحوار الأديان، لتجاوز الولاء والبراء المنغلق على نفسه والذي يعتبر حوار الديانات الأخرى كفراً. ولا معنى لهذا الحوار إذا لم يشارك فيه أكثر من نصف البشرية: 56% من معاصرينا الوثنيين. وهذا ما بدأ يعيه فرقاء هذا الحوار. فقد أشركوا، في مؤتمر حوار الديانات التوحيدية، ممثلي الديانة البوذية، التي هي اليوم من أكثر الديانات اتباعاً وتسامحاً. إذ تسمح للمؤمنين بها باعتناق أي دين آخر شاؤوا مع بقائهم بوذيين.

هذه الروح البوذية المتسامحة والمسكونية (أي العالمية) كانت قوام الإسلام الأول، ونصت عليها كثير من الآيات الكريمة، مثل «والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك». وبهذا المعنى فالمسلم هو في الوقت ذاته يهودي ومسيحي وصابئ، لأن هذه الديانات جميعاً طريق للخلاص الروحي للمؤمنين بها، مصداقاً للآية 69 من سورة المائدة: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون». فهذا الوعد القرآني يعتبر الأديان المعروفة آنذاك طريقاً للخلاص الروحي. لكن هذه الآية، كالآيات الأخرى التي تتعارض مع التوسع الإمبراطوري، على حساب الديانات الأخرى، نسخها فقهاء النرجسية الدينية، فقد نسخوا 75 آية، اعترفت بالحرية الدينية وحرية الضمير والتسامح الديني وحوار الأديان، بآية واحدة وحيدة قرأوها كعادتهم قراءة حرفية هي «إنما الدين عند الله الإسلام». وهذه جرأة فقهية ترقى إلى مرتبة الفضيحة: آية سجالية تنسخ عشرات الآيات التي أسست للتسامح الديني الضروري، خاصة لعصرنا: عصر حروب الأديان المعلنة أو الكامنة! وعلى مدرسة المعقول الديني اليوم



أن تنسخ النسخ، وترد الاعتبار لآيات الحرية الدينية المتطابقة مع العقلانية الدينية وحقوق الإنسان. وهو إنجاز حققه الإسلام الصوفي بنسخه النسخ. سجل ذلك المتصوفة في شعر جميل، مثل عبد الكريم الجيلي القائل، منذ حوالي 6 قرون:

فطوراً تراني في المساجد راكعاً
وطوراً تراني في الكنائس راتعاً
إن كُنت في حكم الشريعة عاصياً
سأكون في حكم الحقيقة طائعاً

الجيلي لا يبالي بحكم الشريعة النرجسية الملتفة على نفسها كعمامة. الحكم الوحيد الذي يرتضيه، هو حكم الحقيقة الصوفية، الحقيقة الروحية التي نلتقي بها في كل الديانات، بما فيها الوثنية، وفي كل أنساق التفكير بما فيها الإلحادية. كما يقول ابن عربي أيضاً:

لقد كنت قبل اليوم أُنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل ملة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
ومعبد أوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجّهت ركائبه
فالحب ديني وإيماني...

ابن عربي نادر في تاريخ الإسلام. إنه حقاً معاصر لنا، إذ اعترف بالديانات الوثنية وساواها بالتوحيدية منذ ثمانية قرون. وما زال فقهاء الظاهر لا يعترفون حتى باليهودية والمسيحية، زاعمين أنهما مجرد



شريعتين نُسختا بالشريعة الإسلامية... لا بأس بتدريس هذه الأبيات، في جميع المدارس وجميع البلدان، في مادة حوار الأديان المطلوب استحداثها. ولتبدأ بذلك المملكة العربية السعودية، التي بدأت تنفتح على حوار الأديان العالمي. ولا بأس بكتابتها، بجميع اللغات، على واجهة أبواب مؤتمرات حوار الأديان، رداً على فقهاء التعصب الذين ما زالوا يكررون «لا معنى لحوار الأديان مع البابا إلا بدعوته إلى دخول الإسلام». قارن هذا التعصب بواقعة وفد نصارى نجران، برئاسة أسقفهم، إلى المدينة للحوار مع نبي الإسلام. كان اليوم يوم أحد، ولما حان وقت إقامة القداس، سأله الأسقف: أين سنصلي يا محمد؟ أجابه: في مسجدي. فلماذا لا يتبادل اليوم المؤمنون بجميع الأديان، الصلاة يوماً كل سنة على الأقل، في معابد بعضهم بعضاً، إحياءً لهذه السنّة النبوية الحميدة؟. ولعل شيخ الأزهر، المنحدر من الإسلام الصوفي، وريث الإسلام المكي الروحي المسالم، سيكون أول المبادرين لذلك بدعوة المسلمين للصلاة في الكنائس في عيد الميلاد، ودعوة البابا للمسيحيين للصلاة في المساجد في عيد المولد النبوي.

دراسة الإسلام بعلوم الأديان، هدفها تعليم أدمغة الناشئة التمرن على الصرامة المنهجية، والانضباط المعرفي، والفكر النقدي، وهي العدة الضرورية لفهم النص وتفكيكه والنقاش فيه بلا محرمات مستبطنة، ما زالت حتى الآن تشكل عوائق تعتقل عقل المسلم فلا يعود قادراً على فهم موضوعه.

سؤال: أضفتَ أيضاً الفلسفة لعلوم الأديان. فكيف تساهم الفلسفة في فهم الدين؟



جواب: الفلسفة ضرورية لفهم الدين والحياة. لإنتاج الحكمة فيهما. العالم الذي نعيش فيه لا يحتاج إلى القوة بل إلى الحكمة. الفلسفة تدرب أدمغة التلامذة والطلبة على استخدام الفكر النقدي، الذي يستدعي جميع الادعاءات الدينية والدنيوية للمثول أمام محكمة العقل، لتحاول تبرير معقوليتها. كما تدرب الأدمغة على استخدام قوة الحجة، بدلاً من حجة القوة، التي توشك أن تجعل العالم غير قابل للحكم وربما أيضاً غير قابل للحياة. تعلمهم لذة الاكتشاف، والفضول المعرفي، أي ثقافة السؤال التي حرمها الفقهاء. كما تحصنهم ضد ثقافة الاستشهاد، وهذيانها عن الشهيد الذي لا يموت، وعن القصر و 72 حورية اللواتي ينتظرن أمامه قدوم القاتل القتيل لافتضاضهن بعدما نفذ جريمته في الأبرياء، تعلم أبناءنا أن يهتموا بمستقبلهم الآن وهنا، تشفيهم من مرض الحنين إلى الماضي، الذي هو حنين إلى فترة الطفولة، فترة الإعفاء من المسؤولية؛ ومن البحث عن مفاتيح حاضرنا ومستقبلنا في ماضينا الذي فات ومات. الإصلاح الديني الشجاع يساعد على طي صفحة ثقافة الاستشهاد بتعويضها بثقافة احترام الحياة، حياتنا وحياة غيرنا. الفلسفة، المفككة للأساطير، تساعد على ذلك.



4 ـ كيف لفّق ابن إسحاق حدّ الرجم؟

سؤال: ناصر بن رجب: يقول الخميني في «تحرير الوسيلة» ج 2، كتاب النكاح، مسألة 12، ص 221: «لا يجوز وطء الزوجة قبل إكمال تسع سنين، دواماً كان النكاح أو مُنقطعاً، وأما سائر الاستمتاعات كاللمس بشهوة والضمّ والتفخيذ فلا بأس بها حتى في الرضيعة، ولو وطأها قبل التسع ولم يفضّها لم يترتب عليه شيء غير الإثم على الأقوى...». فكيف تقرأ هذه الفتوى؟

جواب: للتاريخ، فتوى خميني هذه هي حديث متفق عليه.

سؤال: ما معنى متفق عليه؟

جواب: أي اتفق على روايته الشيخان البخاري ومسلم. وعندئذ يصبح لا جدال فيه. فتوى خميني بهذا الحديث، في القرن العشرين، هي في حد ذاتها شاهد إدانة على تأخّر إصلاح الإسلام بحقوق الإنسان، وعلوم الأديان، والفكر الفلسفي النقدي، وبكل مكاسب الحداثة. تأخر الإصلاح يُنتج الأهوال، وفي مقدمتها طغيان اللامعقول الديني على نحو هاذي [هنا أيضاً لم أحذف الحرف الصوتي لحاجة الأبجدية العربية للصوتيات]، الاستمتاع الجنسي «حتى في الرضيعة» تعبير عن رغبة جامحة في اغتصاب الأطفال، الشائع اليوم في أرض



الإسلام، التي ما زالت دولها لم تحدد بعد سنّ الزواج بثمانية عشر عاماً كما فعلت تونس والمغرب مثلاً. القوانين في العالم الذي نعيش فيه، الوضعية العقلانية، تعتبر نكاح الأطفال قبل ستة عشر عاماً اغتصاباً، إذن جريمة مستوجبة للعقاب. أما في كثير من البلدان الإسلامية فتعتبره الشريعة زواجاً «على سنّة الله ورسوله»؛ وكأحد المؤشّرات على بداية نُضج إصلاح الإسلام في وعي النخب الإسلامية، فرضُ السعودية مؤخراً ضرورة كتابة سنّ الزوجة في عقد النكاح ربّما - في السيناريو المتفائل - كتمهيد لوضع حدّ لاغتصاب الأطفال فيها. والجدير بالملاحظة أن باحثاً مصريّاً أثبت بالعودة إلى وقائع التاريخ، أن سنّ أم المؤمنين عائشة كان ثمانية عشر عاماً، لمّا بنى بها النبي وليس تسعة أعوام كما يذكر البخاري. وهذا ينسف «سنّة الله ورسوله» التي برّر بها المحدّثون الرغبة في اغتصاب الأطفال أي، البيدوفيليا، الراسخة في النفسية، خاصة لمن كانوا في طفولتهم ضحيتها.

لا ينبغي أن ننسى أن في إيران اليوم نخبة إصلاحية عقلانية ذات جماهيرية جارفة لا تعتبر خميني مرجعيّة لها. ومطلبها المركزي فصل الدين عن الدولة، والقطع النهائي مع تطبيق الشريعة، وخاصة إيقاف جريمة الرجم التي تطبقها الآن إيران، التي عاد حكامها للقرون الوسطى، لكن نخبها وشعبها يعيشون، بفكرهم، في قلب القرن الحادي والعشرين، ويدفعون ثمن ذلك من حريتهم وحياتهم. حداثتهم الدينية جديرة بأن تكون قدوة حسنة لكل المسلمين في العالم حيث ما زال تيّار الجمود الديني، بالرغم من أنه في موقع دفاعي، هو الأعلى صوتاً والأشد أذى للاسلام والمسلمين وباقي البشرية.



سؤال: ناصر بن رجب: ترجمتُ بحثاً مهمّاً للمستشرق الفرنسي دي بريمار سأنشره قريباً جدّاً عنوانه: «نبوّة وزنا» فكّك فيه كيف فبرك المحدّثون والفقهاء حد الزنا في الإسلام. اتّضح لي من ذلك أن ابن إسحاق، الذي قال عنه مالك بن أنس إنّه دهري متّهماً إياه بالكذب، لفّق سيناريو امتحان اليهود للنبي في حد الزنا وذلك لهدفين: الأول إثبات أن نبوّة محمد جاءت في التوراة ولكن اليهود كتموها، والثاني نقل حد الرجم من الشريعة اليهودية إلى الشريعة الإسلامية، زاعماً أن أحبار اليهود تآمروا في المدرسة التوراتية لاختبار نبوّة محمد فقالوا: «لنبعث بهذا الزاني والزانية إلى محمد، ونسأله عن الحكم الشرعي فيهما، فإن قضى بالجلد فهو ملِك فاتّبعوه، وإن قضى بالرجم فهو نبيّ فاحذروه» ويجعله ابن إسحاق طبعا يقضي بالرجم لإثبات نبوّته وإضفاء الشرعية الإسلامية على حد الرجم التوراتي...

جواب: استنتاجك صحيح تماماً. فقصد ابن إسحاق هو إثبات أن اليهود تأكدوا من نبوّة محمد فكتموها وناصبوه العداء، ممّا يبرّر حروبه عليهم. وسواس تآمر اليهود على النبي نلتقي به في كل منعطف. مثلاً زعم ابن إسحاق أنه لما مر أبو طالب، مرفوقاً بالفتى محمد بقافلته، على الراهب بحيراء أنبأه هذا الاخير بأن ابن أخيه سيكون نبياً وحذره من اغتيال اليهود له. ذات الهاجس نجده في فبركة سبب نزول آية تغيير الاتجاه من القدس إلى الكعبة. فقد زعم واضعو أسباب النزول أن اليهود قالوا: لماذا يشاركنا محمد في الاتجاه في صلاته إلى القدس بينما التوراة تقول إن «نبيّ آخر الزمان» يستقبل في صلاته القبلة... طبعاً هذا النص لم يوجد وما كان بإمكانه أن يوجد، لأن النرجسية الدينية في اليهودية، التي حصرت النبوّة في ذرّية إسحاق، ينافيها.



وبالمناسبة يقول المستشرق ميشيل كويبرس في كتابه «القرآن» إنّه عُثر على تسعمائة آية من مصحف يُرجِّح الباحث المعروف في القرآنيات، أمير معزّي، أنه إمّا أنها تعود إلى مصحف ابن مسعود أو إلى مصحف أُبي بن كعب، ويلاحظ المستشرق، الذي اطّلع على هذا الجزء من المصحف، أن الحديث والقرآن ما زالا لم ينفصلا عن بعضهما البعض، ضارباً مثلاً باحتوائه لحديث-آية الرجم. وهذا يشير إلى أن الآيات تعود على الأرجح إلى مصحف أُبيّ؛ فالسجستاني يُخبرنا بأن آية الرجم موجودة فيه. ولكن نفوراً من هذا الحدّ الفظيع، فإن لجنة جمع القرآن، التي كان فيها أبيّ، أبت إدراج حديث-آية الرجم في مصحف عثمان مما يدل على سوء سمعة الحدود الشرعية عند عثمان وباقي أعضاء اللجنة.

سؤال: هل كانت سمعة الحدود سيئة إلى هذه الدرجة؟

جواب: نعم، شريعة العقوبات البدنية لم تكن لها سمعة حسنة في تاريخ الإسلام. مؤسّس الإسلام كان يوصي أصحابه في المدينة بالتصالح فيما بينهم، تفادياً لتطبيق الحدود عليهم قائلاً: «تعافَوْا الحدود فيما بينكم، فما بلغني منها نفّذته». وحتى ما يبلغه منها فإنه بحث له عن مخرج لعدم تنفيذه قائلاً: «ادرأوا الحدود بالشبهات»، أي أنّ على القاضي أن يبحث عن شبهة براءة ليتجنب بها تطبيق الحد. وعُمر أوقف حدّ السرقة عام الرمادة أي المجاعة. وعثمان، رفض إقامة الحد الشرعي على سالم بن عمر بن الخطاب لقتله قاتل أبيه «لؤلؤة» وابنته، رغم مطالبة علي بن أبي طالب بإقامة حد القصاص عليه. وكان رد عثمان براغماتي: «لن أفعل؛ بالأمس يُقتل عمر واليوم



يُقتل ابنه!» ودفع من مال بيت المسلمين دية القتيلين. وقبل ذلك، رفض أبو بكر القصاص من خالد بن الوليد لقتله مالك بن نويرة، بالرغم من إلحاح عمر على ضرورة الاقتصاص منه. حتى حماس التي جعلت من تطبيق الحدود الشرعية سبب وجودها بدأت، تحت ضغط مبدأ الواقع، تبتعد عنها؛ فاتهمتها السلفية الجهادية «بالتخاذل في تطبيق الشريعة الإسلامية، لصالح علاقات مع دول غربية كافرة»، في مقدمتها أمريكا كما تقول السلفية الجهادية. حتى لو أخذت السلفية الجهادية مكان حماس، فإنها هي نفسها قد «تتخاذل في تطبيق الشريعة الإسلامية...» لأن ثقافة حقوق الإنسان نزعت عنها كل شرعية.

قيم الحداثة الإنسانية تتقدم حتى الآن بخطى ثابتة، على حساب القيم التقليدية التي لا تقيم وزناً لحقوق الإنسان.

سؤال: ناصر بن رجب: يقول ابن إسحاق، في مختصر سيرة ابن هشام، أن عمر خطب في الناس مذكّراً لهم بأن آية الرجم غير منسوخة، وهدّد بإقحامها في المصحف مُستدركاً: «لولا أن يقول الناس إنّ عمر زاد آية لزدت آية الرجم»...

جواب: نحن دائماً في مسرحية تلفيق الأحاديث، وإدخالُ عمر في لعبة إثبات أن حد الرجم من الإسلام هو، في نظري، ردّ ضمني على اتّهام الشيعة له بنسخ آية الرجم من ألواح حفصة قائلين: «لقد وضع إبهامه على لسانه ثم فسخ آية الرجم بلعابه»، فكان رد ابن إسحاق، وفي الحقيقة الخليفة المنصور عَبْره الذي كلفه بكتابة تاريخ البشرية من آدم إلى المنصور نفسه، هو الإلحاح على تمسّك عمر بحدّ الرجم، والتأكيد بأنه غير منسوخ كما قال في الخطبة المنسوبة إليه.



وقال الفقهاء، الذين لا ينقصهم التناقض، إن آية الرجم نُسخت لفظاً وبقيت حكماً. أي أنه لم تعد لها قداسة القرآن، ولا يمكن الصلاة بها، ويمكن مسّها دون طهارة... إلخ، لكنها مع ذلك تظلّ صالحة لقتل الزاني والزانية رجماً. وحدهم المعتزلة أدركوا عبثية نسخ التلاوة وبقاء الحكم، كما يقول السنة.

سؤال: ناصر بن رجب: من أين أخَذَت الشريعة اليهودية حد الرجم الوحشي؟

جواب: لا أعلم. كراهية المرأة كانت - وفي أرض الإسلام ما زالت - قاسماً مشتركاً بين غالبية الرجال. قد تكون ترجمة للحقد الدفين على المرأة، الكامن في الشخصية النفسية للذّكور. شريعة حامورابي قضت بقتل الزانية غرقاً في دجلة والفرات. وقد أحيت هذه السنّة الحامورابية الجماعة الإسلامية في كردستان العراق في التسعينات، عندما قتلت فتاة اتهمتها بالزنا بإغراقها في أحد الأودية. أما الهندوس فيرمون الزانية للكلاب المُجوَّعة لتنهشها...

سؤال: ولماذا هذه القسوة اللامتناهية ضدّ المرأة الزانية؟

جواب: من وجهة نظر نفسانية قد يعود ذلك إلى فانتازم الأم المفترسة الذي كوّنه الرضيع عن الأم التي لا تقدّم له ثديها في الوقت المناسب. علماً بأن جوع وعطش الرضيع لمدّة ربع ساعة يعادل جوع وعطش الراشد لمدة ثلاثة أيام. ويُعيده بعض المحلّلين النفسانيين إلى قلق الخصاء حيث يرقد في لاشعور الذّكر الخوف من ابتلاع فرج المرأة العضو الذكري. أما السيكولوجي الألماني، كنول، فيفسره



بالخوف من المقارنة مع رجل آخر، الذي يعود في نهاية التحليل إلى قلق الخصاء. وهي في نظري فرضية وجيهة تدعمها شواهد أنثروبولوجية عديدة لا مجال لذكرها هنا.

من هنا أهمية تدريس التربية الجنسية العلمية، لتبديد هذه المخاوف اللامعقولة كما بدّدتها في أوربا التي مرت هي أيضاً في عصور ظلامها بهذا العداء الدفين للمرأة. مثلاً أحرقت الكنيسة الكاثوليكية مائة ألف «ساحرة» يهودية!

في هذا المناخ تبدو الحكومات التي تُطبق العقوبات البدنية المتقادمة، وكأنها قد نامت نومة أهل الكهف، وتتعامل بعُمْلتهم التي لم تعد قابلة للتداول. بالمناسبة، أسطورة أهل الكهف، يُعلّمنا تاريخ الأديان المقارَن أنها مأخوذة من أسطورة «السبعة النيام» في إفسُس؛ وهم مسيحيون فرّوا من اضطهاد الإمبراطور ديسيوس (حكم من 249 إلى 251) ولم يستيقظوا إلا في عهد الإمبراطور ثيودوس الثاني (حكم من 408 إلى عام 450).

مصداقاً لهذه الحقيقة الأنثروبولوجية، أي تقادم الشريعة؛ الشريعة، كما صرّح مفتي مصر، لم تُطبَّق في مصر منذ ألف عام، بسبب زوال الظروف والذهنيات التي ظهرت فيها. ونفس هذه الحالة الأنثروبولوجية تنطبق على آيات الإسلام المدني السّجالية ضد اليهود والنصارى والمشركين. والمشركون هم الوثنيون، أي مثلاً الصين والهند واليابان؛ وقد تساءل رشيد رضا مستغرباً التمسّك بجهاد الطلب لإدخال البشرية كافة في الإسلام: هل علينا أن نجرّد جيشاً لإدخال اليابان في الإسلام؟ تساؤله يكشف عبثيّة التمسك بنصوص زالت مُبرّراتها الأنثروبولوجية. نفس الحقيقة الأنثروبولوجية تنطبق على



إسلام الولاء والبراء، الذي جعل منه أقصى اليمين الإسلامي السياسي كلَّ الإسلام. والحال أن الولاء والبراء لم يكن إلا قانوناً عرفيّاً؛ ربما كان صالحاً لزمن حروب النبيّ مع المشركين. وما إن وضعت الحرب أوزارها لا يعود ساري المفعول، تماماً كما تفعل الحكومات المعاصرة. لكن أقصى اليمين الإسلامي المريض بالأوطيزم، أي الانطواء على الذات، جعل الولاء والبراء عابراً للتاريخ. الإخوان المسلمون في مصر وسوريا يطالبون بإلغاء قانون الطوارئ الذي عمره 30 عاماً. لكنهم، يا للمفارقة، متمسكون بقانون طوارئ الولاء والبراء الذي عمره 14 قرناً. إنه الجمود الديني اللامبالي بحقائق الزمان والمكان، والذي افترس كل نواة معقولية في رؤوس ضحاياه.

ومن مؤشرات نضج الانتقال من الفقه القديم إلى فقه جديد متصالح مع عصره، انعقاد مؤتمر إسلامي، في مارس الماضي، بمدينة ماردين (تركيا)، حضره علماء، من عدة بلدان إسلامية، أكدوا تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب، وتكفير المسلمين باسم عقيدة الولاء والبراء قد تجاوزه الزمن، فلم يعد صالحاً لعصرنا. وهو ما كنت أتمناه بكل جوارحي. وأَقترحُ على شيخ الأزهر أن يعقد مؤتمراً موسّعاً، تحت إشرافه، لتأييد هذه الفتوى الشجاعة، وتوسيعها؛ بل وأقترح على كل بلد مسلم عقد مثل هذه المؤتمرات للتعجيل بميلاد فقه إسلامي جديد متصالح مع عصره، دشن الصديق جمال البنا بسملاته الأولى.



5 ـ خطر تذويب الفرد في الأمّة

سؤال: ولكن كيف يمكنك التوفيق بين التنزيل الصالح لكل زمان ومكان وتاريخيّة النص التي تفرضها علوم الأديان؟

جواب: بتنزيل التنزيل في التاريخ الذي مارسه التنزيل نفسه على نفسه. فلا نكن ملكيين أكثر من الملك. فقد نسخ القرآن مئات الآيات التي تقادمت، أي فقدت صلاحية تطبيقها على الوقائع الجديدة وعوّضها بآيات «خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» كما تقول الآية. وبعد وفاة نبيّ الإسلام نَسَخ أبو بكر وعمر وعلي ومَعاذ بعض الآيات، كما نسخ الفقهاء بعض الآيات الأخرى والأحاديث، أَخُصّ بالذكر منهم أبو أحمد الونشريسي والفقيهين الطاهر الحداد وحسن عبد الله الترابي، وجمال البنا، ومحمد الطالبي وغالب بن شيخ؛ فيما يخصني اقترحت، بدلاً من النسخ بالقطارة أي آية بعد آية، مبدأ عاماً ناسخاً: نسخ كل نص، آية أم حديثاً، يتعارض مع مصلحة المسلمين، أو مصلحة البشرية أو يصطدم بحقوق الإنسان، في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والوثائق المكملة له؛ ألح هنا على نسخ جميع آيات القرآن المدني السجالية أو العدائية لغير المسلمين بمن فيهم المشركين؛ لأن إسلام القراءة الحرفية والولاء والبراء عمما هذه الآيات الظرفية أي الخاصة بمكانها وزمانها على جميع اليهود والمسيحيين والمشركين المعاصرين!



سؤال: ولكن هل الآيات الروحية كالصلاة مثلاً ليست خاضعة لضرورات تنزيلها في التاريخ الذي يسمح بتعديلها ونسخها؟

جواب: غالبية الآيات التي نسخت كانت آيات زمنيّة أي تتعلّق بشؤون دنويّة مُتغيّرة. لكن لا بد من إصلاح بعض العبادات كالحجّ والصيام. شُرب كأس ماء كل نصف ساعة هو أمر طبّي مُلزم لسلامة الكِليتين والبروستات والجهاز الهضمي. فكيف يمكن الإمساك عن شرب ولو قطرة ماء واحدة طوال النهار خاصة في الصيف فضلاً عن انهيار الإنتاج في رمضان؟ يهدف الإصلاح الديني أيضاً إلى تطهير الإسلام من العنف الشرعي حدوداً أو جهاداً ومن إقصاء المرأة وغير المسلم من حقوق المواطنة الكاملة. كما ينبغي أيضاً تطهيره من العنف ضدّ الذات، أي عقاب الذات، كتعبير عن المازوشية الأخلاقية التي هي الشعور غير المبرّر بالذنب. مثل بعض شعائر الحج كرمي الجمار التي تُسفر في كل موسم عن مذبحة من تدوسهم أقدام الحجيج المتحمسين لرجم الشياطين المُقيّدة أمامهم، وهي تعبير صارخ عن هذا الشعور العصابي بالذنب الذي يتم تنفيسه في الشياطين المقيدة. تنفيس المشاعر المكبوتة صحي، لكن الثمن اليوم باهظ. من الضروري أيضاً إعادة النظر في المحرمات الغذائية غير المبررة طبياً، وإلغاء العادات الوحشية مثل ختان البنات والذكور، الذي يعلمنا تاريخ الأديان المقارن أنه طقس فرعوني. الصحابة لم يُختنوا بعد إسلامهم، ومحمد لم يولد مختوناً كما تزعم الأسطورة.

سؤال: ما هي وسيلة التخلص من هذه العادات الفرعونية؟

جواب: أولاً بمنعها قانوناً بما هي مناقضة لمبادئ حقوق



الإنسان، وفي مقدمتها الحق في السلامة البدنية؛ ختان الذكور والإناث، بما هو تشويه للعضوين الجنسيين، هو انتهاك موصوف لهذا الحق. فضلاً عن مضار الختان الجسدية والنفسية. إذ إنه يشكل صدمة خصاء لضحاياه. وثانياً بتوظيف الإعلام والتعليم في إعادة تثقيف الوعي الجمعي بقيم الحضارة الإنسانية واللاعنف ضد الذات وضد الآخر.

سؤال: البعض لا يعترف بالنسخ في القرآن مُؤّولاً له بأنه تعميم وتخصيص؟

جواب: إنكار النسخ متأخّر جداً وقد يكون نتيجة للجدل الديني مع اليهود والنصارى، الذين استغربوا أن يُغيّر الله العليم بكل شيء رأيه من لحظة إلى أخرى، ممّا أحرج الفقهاء والمتكلمين، فلجأوا إلى الهذيان أي إنكار واقعة النسخ تكذيباً للقرآن نفسه: «وما ننسخ من آية أو ننسها نأتي بخير منها أو مثلها». القرآن كان ينسخ نفسه لسببين، إمّا لتغيّر الوضع بعد نزول الآية المنسوخة أو بطلب من الصحابة. يقول البخاري: «نزل القرآن بطلب من الصحابة» وأُضيف ونُسخ أيضاً بطلب منهم. مثلاً، نسخ الآية 65 من سورة الأنفال: «. . . إن يكن منكم عشرون صابرون يَغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا. . .». يقول الطبري إن الصحابة «استعظموها» وطالبوا النبي بنسخها. فنُسِخت فوراً بالآية التالية لها: «الآن خفّف الله عنكم وعلِم أنّ فيكم ضُعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين. . .» (الأنفال، 66). وهكذا نُسخ ميزان القوّة الذي أقرّته الآية 65، أي مقاتل مسلم في مقابل عشرة مقاتلين



مشركين، بميزان قوّة جديد أكثر واقعية أتت به الآية التالية لها: مقاتل واحد في مواجهة اثنين. هذه هي القراءة التاريخية للنّص، التي ينبغي أن تعلمها المؤسّسة المدرسية لأجيالنا الطالعة، لتتشرّب تنزيل التنزيل في التاريخ، كما فعل أبو بكر عندما نسخ حقَّ «المؤلّفة قلوبهم»؛ وكما فعل عمر وعلي ومعاذ عندما نسخوا آية الفيء؛ وكما نسخ الفقهاء الآية 282 من سورة البقرة: «إذا تداينتم بديْن إلى أجل مُسمّى فاكتبوه». كما نسخ الفقيه الونشريسي (القرن 15) حديث تحريم الزكاة على آل البيت؛ كما نسخ الشيخ الطاهر الحداد تعدّد الزوجات، واللامساواة في الإرث بين الذكر والأنثى في كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» (1930)؛ وكما نسخ الشيخ حسن الترابي سنة 2006 اللامساواة في الشهادة والميراث بين الذكر والأنثى، وآية «سدرة المنتهى»، التي قال إنها لا وجود لها. وأعاد في سنة 2009 نسخ الآية التي تحرّم على المسلمة الزواج من غير المسلم، معترفاً للمسلمة بالحق في الزواج من اليهودي والمسيحي والوثني. ونسخه مطابق لمبدأ «الزواج للجميع»، المطبق في كثير من البلدان المتحضرة، لأن العقد بين الراشدين الراضين هو شريعة المتعاقدين.

سؤال: ألا ترى أن جماعات الفتاوى كما في المغرب، أو النهي عن المنكر في السعودية، تنطلق من اعتبار كل مسلم مسؤولاً عن صحة دين أي مسلم آخر، مسؤولة عما تسميه أنت تذويب الفرد في الجماعة؟

جواب: بالتأكيد، بالممارسة الجماعية التي تُذوّب الفرد في كلّ يتعالى عليه، كالقبيلة، والطائفة والأمة، لتحويله، من فرد يختار قيمه



ونمط حياته بنفسه، إلى عضو مطيع في قطيع القبيلة أو الطائفة أو الأمة، يقول ما قيل له كالببغاء: إذا قعد القطيع قعد معه، وإذا قام القطيع قام معه. وهكذا يغدو عاجزاً، في المجال الديني مثلاً، عن اختيار طريقته الخاصة في التدين إذ إن تديّن العضو المذوب في قطيع هو تدين كل عضو من أعضاء القطيع! مثلاً في كرة القدم التي ترمز لروح القطيع وللمنافسة بين فريقين أو أمتين، تنفجر الانفعالات القبلية البدائية الصاخبة بين مؤيدي الفريقين المتنافسين. لكن ردود الفعل البدائية هذه لا تظهر في التنس أو الملاكمة. لأن المنافسة ليست بين قبيلتين بل بين فردين. في السعودية مثلاً، تتجسس الميليشيا الدينية على الناس، في كل مكان، لتنهال عليهم بالضرب إذا وجدوهم متلبسين بـ«البدع». ورغم عقم هذا القمع، الذي نفر الشباب السعودي من الفرائض الدينية وأحياناً من الدين نفسه، فإنهم مصرون عليه بعناد عصابي. تذويب الفرد في الأمة هو استمرار لتقاليد القبيلة في الجاهلية، التي كانت تصادر حرية كل فرد من القبيلة، لحساب روح القطيع القبلية، لحساب تذويب الفرد في القبيلة ليموت من أجلها في حروبها الحمقاء مثل أخذ الثأر حتى لناقة جرباء؛ فإذا حدث وتطور من عضو إلى فرد فتمرد على روح القطيع سماه القطيع «خليعاً»؛ المغزى، أن القبيلة تبرأت منه ورفعت عنه حمايتها فبات دمه مهدوراً لأي كان؛ استعادت الأمة، والأمة كلمة عبرية تعني القبيلة، الإسلامية هذا التقليد الجاهلي، فسمّت الفرد المتمرد على انضباطها البقري وشعائرها الوسواسية «مرتداً»؛ وحكمت فصل رأسه عن جسده، كما فصل هو رأسه عن رأس القبيلة الجمعي!



سؤال: تُلح منذ سنوات على ضرورة تشجيع استقلال الفرد وعدم تذويب الفرد في الأمة الذي اعتبرته وصفة للإرهاب. فهل تستطيع تلخيص الإجراءات العملية المساعدة على عدم تذويب الفرد في الأمة؟

جواب: أم الإجراءات هي إصلاح الإسلام، الذي يؤدي إلى باقي الإجراءات الأخرى، مثل تشجيع ميلاد الفرد والتدين الفردي وحصر الدين في المجال الخاص - عملاً بالآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضل إذا اهتديتم»؛ وتشجيع الاختلاط في المدرسة، والنادي، والسينما، ووسائل النقل وفي كل مظاهر الحياة الاجتماعية، وتشجيع التعارف قبل الزواج، والعلاقات الحرة ومنع الزواج المفروض وزواج الأطفال، وإدخال التربية الجنسية العلمية في جميع المدارس منذ الإعدادي، وفرض تحديد النسل، وإعطاء الحق في الإجهاض، اعترافاً للمرأة بحرية تصرفها في جسدها ونزعاً لفتيل قنبلة الانفجار السكاني، والتوقف عن تذنيب ملايين النساء العازبات. فقط في الشعوب البدائية، أو ذات الذهنية البدائية مثل شعوبنا، المرأة العازب أو العاقر تعتبر نذير شؤم. وتشجيع تقرير الفرد لمصيره في حياته اليومية. باختصار، الشروع، منذ رياض الأطفال، في تشجيع ظهور الفرد المتصرف في رأسه وفَرْجه، بحرية، في إطار القانون الوضعي العقلاني. هذه التدابير الضرورية تساعد على عدم تذويب الفرد في الأمة الذي تمارسه اليوم مدرسة اللامعقول الديني تحقيقاً لهدف أقصى اليمين الإسلامي، الرامي إلى تذويب الفرد في الأمة لتجنيد الفرد الذي مُسخ إلى مجرد رقم أي عضو في قطيع الأمة، التي يعطي بها معنى لحياته التي لا معنى لها. وهكذا يقبل أن يَنْحَر وينتحر من أجلها، وأن يُطيع طاعة عمياء الناطقين باسمها، من رجال



ونساء أقصى اليمين الإسلامي، وضرورة تشجيع التعليم والإعلام لكل المناشط، التي تشجع غرائز الحياة مثل تنظيم الحفلات والمهرجانات الموسيقية السنوية، والإكثار من المسلسلات الخاصة بنجوم الغناء، والموسيقى، وأعلام الأدب الباسم، وإحداث مواقع إنترنت وإذاعات وفضائيات غنائية وموسيقية، لترويج المشاريع الفنية والثقافية والسياسية القائمة على تحالف العلم والتقدم والديمقراطية؛ وفتح باب النقاش الحر على مصراعيه بلا محرمات دينية أو سياسية. ذلك يعني إيجاد تعليم وإعلام بديلين، يشجعان البحث عن المعرفة الموضوعية، والدفاع عن الفلسفة الإنسانية الجديدة، المتمثلة في الدفاع عن قيم حقوق الإنسان، وحقوق الطبيعة على الإنسان، بدلاً من كاريكاتور الإعلام والتعليم السائدين اليوم، الحاملين لروح القطيع التي تمحو الفرد محواً.

سؤال: المهربون الدينيون في المغرب يسمّون الموسيقى مزامير الشيطان. فما سبب هذا العداء للموسيقى؟

جواب: أولاً، أقترح تسميتهم بالناطقين باسم الجمود الديني. بالمناسبة يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي «من لم تطربه الموسيقى فقلبه ميت». عداؤهم للموسيقى وحتى للضحك هو تعبير عن الاكتئاب المُستبطن وغريزة الموت الملازمة له. وهذا معنى «القلب الميت» عند المتصوف الغزالي. أثبتت دراسات الدماغ أن الموسيقى تنمي الذكاء. في أوربا الأطفال ينامون ويستيقظون، منذ الولادة، على موسيقى خاصة بكل شريحة عمرية: لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون!



سؤال: هل حقوق الإنسان هي الدين المدني؟

جواب: نعم، فقد طَوّرت بعض القيم الدينية، بعد تصحيحها بقيم الفلسفة الإنسانية، وبعد تخليصها من العصبية الدينية. وهكذا غَيّر المقدّس موقعه، من تقديس الأساطير والرموز الدينية، إلى تقديس الشخص البشري وحقوقه. بإلغاء العقوبات البدنية، المُذِلّة للجسد البشري، بتشويهه بقطع يده أو يده ورجله من خلاف، أو دقّ عنقه وإعدامه. هذه العقوبات المبرمجة في الدماغ البشري، منذ العصر الحجري الأول، عندما بدأ الإنسان يصيد بسلاحه الحجري الحيوان والإنسان خاصة الأطفال والنساء. تقديس الله وحده لم يعد كافياً لتوحيد مواطني كل دولة-أمّة نظراً لاختلاف مفهوم الله عندهم أو حتى لغيابه عند بعضهم. أما تقديس الشخص البشري، وحقوقه فكافٍ لتوحيدهم، وراء راية احترام حقوق الإنسان والطبيعة التي ينبغي أن تكون هي جوهر العقد الاجتماعي للقرن الحادي والعشرين. الصراعات الدينية والقبلية والأيديولوجية الدامية في الدول الدينية مثل إيران والسودان تشهد على استحالة اتخاذ الطائفة قاسماً مشتركاً بين المواطنين. مثلاً في العراق والسودان الكرة توحد السنّي والشيعي والمسلم والمسيحي والوثني في السودان لكن الانتماءات الطائفية والدينية تمزقهم. الدولة الدينية تستمد شرعيتها من الدين، أما الدولة المدنية فتستمد شرعيتها من احترام القانون الوضعي العقلاني، وفصل السلطات، ومن احترام حقوق الإنسان. إصلاح الإسلام كفيل بتغيير القيم وإعادة تأسيسها عقلانياً. من هنا أهميّة تدريس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي لا يتجاوز بموادّه الثلاثين صفحتين منذ الإبتدائي، لتحديث العقلية الإسلامية التي يمثل تطويرها رهاناً كبيراً



للتصالح مع الحداثة، أي مع العالم الذي نعيش فيه؛ عسى أن نتحوّل من موضوع للتاريخ إلى مساهم في صنعه. وكذلك تدريس ملحقاته كالاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، والاتفاقية الدولية لمنع التمييز ضد المرأة، والاتفاقية الدولية لحماية الأقليات.

سؤال: ماذا تقصد بإعادة تأسيس القيم الدينية عقلانياً؟

جواب: شيئاً قريباً من تغيير طبيعة القيم عند نيتشه. مثلاً قيمة الأُخُوّة، لن تعود أُخوة بين المؤمنين فقط، بل تتطور لتصبح أخوةً عابرة للثقافات والديانات؛ أخوة بين جميع المواطنين والبشر جميعهم بما هم متساوون في الحقوق والكرامة، بصرف النظر عن دينهم، وجنسهم، وجنسيتهم ولونهم، ثم بين البشر والطبيعة، أي الأشجار والحيوانات، التي يُبيد التلوّث آلاف الأنواع منها تمهيداً لإبادة البشر أنفسهم. بالمثل، قيمة التضامن، التي هي اليوم قيمة مركزية للعيش معاً داخل كل بلد وداخل كل القرية الكونية، لا يعود التضامن، بالإصلاح الديني، غريزيّاً ودينيّاً بين أعضاء قبيلة المؤمنين، بل يتطور ليغدو تضامناً واعياً ببواعثه وأهدافه الإنسانية، التي تتعالى على الروابط العتيقة سواء كانت إثنية أو دينية. وهكذا فكثير من القيم الدينية قابلة للتطور إلى قيم عقلانية كونية في خدمة الإنسان بما هو إنسان - محض إنسان - حتى عندما تكون ذات منشأ ديني. كالأخوة التي يجسدها الصليب الاحمر حيث يضحي شباب أحياناً بحياتهم، من أجل إنقاذ حياة الآخرين الذين لا تربطهم بهم روابط قومية أو دينية. فمتى نرى الهلال الأحمر يرقى إلى مثل هذا المستوى من الحس الإنساني؟



سؤال: تبدو متفائلاً جداً في عالم تطحنه الأزمة ويموج بالتناقضات من كل نوع. قد يبدو تفاؤلك للبعض ساذجاً عندما تتحدث عن الأخوّة البشرية بينما في الواقع العالم يعيش في صدام الثقافات، والعالم الإسلامي تأكله الحروب الدينية والطائفية؟

جواب: أنا أشتغل على سيناريوهين اثنين: المتشائم والمتفائل، وأراهن على هذا الأخير كمجرد إمكانية واعدة. متمنّياً أن لا تتحقق نبوءة فلوبير «المستقبل هو أسوأ ما في الحاضر». أما إذا اشتغلت على السيناريو المتشائم، أي الكارثي، فلا يبقى لي إلا الصمت. فالعالم مهدّد بسلسلة من الكوارث كالعرائس الروسية يُغطي بعضها البعض. مثلاً، انهيار مالي عالمي يغطي سيناريو الحمائية الجمركية، وهذه الأخيرة تعطي سيناريو الفاشية والحرب؛ وهو السيناريو ذاته الذي اكتوت به البشرية في الثلاثينات. ولكن هذه المرة يعطي سيناريو احتمال الحرب النووية ولو المحدودة. ونتيجة لذلك ارتفاع حرارة المناخ إلى 4 درجات في مستقبل منظور، وهذا يغطي سيناريو انفجار آبار الميتان في البحار الكفيلة بإبادة النوع البشري.

استخدامي للسيناريوهين، يستمد مشروعيته من فرضية أن الصيرورة التاريخية هي صراع بين الاتجاه المتفائل والاتجاه المتشائم، وحصيلتهما هي التاريخ المتحقق فعلاً. شعاري هو الحديث الشريف القائل: «إذا قامت الساعة وبيَد أحدكم فسيلة فليغرسها». إصلاح الإسلام هو هذه الفسيلة التي لا بأس من غرسها حتى في لحظة النفخ في الصور...



6 ـ الانحطاط هو هزيمة العقل

سؤال: تستخدم كثيراً مقولة الانحطاط، لكن مؤرخ العلوم راشد رشدي ينفي مفهوم الانحطاط، نظراً إلى أن العلم الإسلامي تواصل دون انقطاع، منذ القرن العاشر إلى اليوم، فما هو تعريفك للانحطاط؟

جواب: سقط العالم الإسلامي في الانحطاط منذ القرن الثاني عشر في المشرق، ومنذ القرن الخامس عشر في المغرب (سقوط غرناطة)، كما يقول المؤرخ التونسي هشام جعيط. أولاً العلم الإسلامي في القرون الوسطى كان امتداداً للتأمل العلمي اليوناني، الذي ليس له من العلم إلا الاسم: تنقصه الملاحظة والتجربة العلميتين. العلم التجريبي لم يظهر إلا في القرن السابع عشر. «العلم» الذي لم يتواصل في أرض الإسلام هو الفلسفة. الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة نص، وثقافة نقل لا عقل. عامل تخصيبها الأساسي هو العقل الذي وئد في المهد. من هنا ضرورة تعميم الفلسفة منذ الثانوي بل وحتى الإعدادي. في تونس، تُدرس الفلسفة في السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوي، وفي المغرب في السنوات الثلاث من التعليم الثانوي.

الدخول في الانحطاط في الحضارة الإغريقية، كما في الحضارة العربية الإسلامية، هو هزيمة العقل الفلسفي أمام الأسطورة في الأولى،



وهزيمة العقلانية الدينية، والعقل الفلسفي الإسلامي، والعقل النقدي في الثانية، أمام القراءة الحرفية للنصّين المؤسّسين القرآن والحديث، على يد حزب المحدّثين الذي عبّر الترمذي، تلميذ البخاري، عن لامعقوله الديني عندما قال: «من أصاب في القرآن بالرأي فقد أخطأ ومن فسّر القرآن بالرأي فقد كفر»، والرأي عنده هو العقل. نحن هنا أمام حالة خوف هيستيري من العقل، ربما كانت عند الترمذي، عرضاً للجنون الهسيتيري الفصامي، كما يعرفه الطب النفسي الحديث.

سؤال: ما هي هذه الاتجاهات العقلانية الثلاثة؟

جواب: هي العقلانية الدينية المعتزلية، التي اعتبرت الإنسان مسؤولاً وحيداً عن أفعاله، والعقلانية الفلسفية الإسلامية السينية والرشدية، التي اقترحت قراءة فلسفية للنص تتأوله لصالح العقل: «لأن الله تعالى لا يمكن أن يعطينا شرائع ويعطينا عقولاً مخالفة لها» كما قال ابن رشد؛ والعقلانية الفلسفية النقدية، التي بشرت بنبوة العقل «فكل عقل نبي». وممّن مثلوا هذا الفكر النقدي في الإسلام، الطبيب أبو بكر الرازي، والمعتزلي السابق، ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري القائل: أيها الغرّ قد خُصصت بعقل / فاسألنه، فكل عقل نبيّ.

أراهن على أن أي فيلسوف من فلاسفة الأنوار ما كان ليتردد في اتخاذ هذا البيت شعاراً له.

سؤال: الترمذي هو من محدثي القرن التاسع وحزب الحديث ظهر في القرن الثامن الميلادي. فهو لم يظهر في الانحطاط، بل في أوج النهضة الثقافية الإسلامية. فكيف تفسر ذلك؟



جواب: الصيرورة التاريخية ليست وليدة الأحداث التاريخية المعزولة. بل وليدة نسيج حدثي واجتماعي، أي مسار تاريخي كامل، يتصارع فيه اتجاهان متعارضان: اتجاه سائد واتجاه مضاد له. عندما كان الاتجاه إلى المعقول الديني الاعتزالي والفلسفي هو السائد، كان الاتجاه إلى اللامعقول، الذي مثله حزب القراءة الحرفية، حزب الحديث، هو الاتجاه المضاد، أي الذي همّشه التاريخ. لم تنقلب الأدوار إلا ابتداء من القرن 12 في المشرق، حيث غدا الاتجاه إلى اللامعقول الديني هو السائد.

رهان كل من هذين الاتجاهين، اللذين سيطرا على الجدل بين الفرق طوال العصور الوسطى الإسلامية؛ هو هل الإنسان مخيّر، كما يقول المعتزلة، أي «خالق أفعاله» بما فيها من خير، يتطابق مع المثل الأعلى الأخلاقي، أي مع الفضيلة والتقوى، أو شر، يتطابق مع الرزيلة. عند المعتزلة، الإنسان لا يكون مسؤولاً عن أفعاله، خيرها وشرها، إلا إذا كان حراً؛ إذ إنه إذا لم يكن مخيراً بين إتيان الفضيلة واجتناب الرزيلة، فالله، الذي هو في نظرهم، «عدل محض» لا يجوز عليه أن يُثيب على الخير أو يعاقب على الشر إذا كان قد قدرهما على «العبد» منذ الأزل فكيف يعاقب عباده على شر قدره لهم فارتكبوه رغم أنوفهم. ويستشهدون بآيات التخيير ويؤولون نقيضها، آيات التسيير، بتعسف غالباً، لماذا؟ لأن التناقض الفصامي في هذه الآيات يعبّر عن اضطراب الفكر والسلوك لشخصية نبي الإسلام النفسية. أما أهل السنّة والجماعة، فيؤكدون أن العبد مسيّر لا مخيّر «لا يجب على الله شيء»، «إن يُثيبنا فبمحض الفضل، وإن يعذبنا فبمحض العدل»: صورة مخيفة لخليفة مطلق وسادي لا يُسأل عما يفعل؛ أما عباده



فيُسألون حتى عما لا يفعلون. بشيء من التبسيط، نقول إن المعتزلة كانوا نُصراء للملكية الدستورية المقيدة بدستور وملك عادلين، وهكذا قيدوا قضاء الله وقدره بالعدل. أما أهل السنّة والجماعة، فكانوا للملكية المطلقة، فأطلقوا لقضاء الله وقدره العنان.

هذا هو الفرق بين العقلانية الدينية الاعتزالية واللامعقول الديني السنّي، الذي يعتقد أن المسلم لا يكون مسلماً: «إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره» دونما احتجاج أو سؤال.

أعطي هنا نادرة عن صراع هذين الاتجاهين في القرن التاسع، الذي تعايش فيه المعتزلة والفلاسفة والمفكرون الأحرار والمحدّثون: إبراهيم النّظام، أحد متكلمي الاعتزال، انتقل من البصرة إلى بغداد. بينما كان يلقي درسه في جامع المنصور، حاول أحد أنصار التسيير امتحانه بالسؤال التقليدي آنذاك: «يا عم من يجمع بين الزاني والزانية؟» أجابه «يا ابن أخي نحن في البصرة نقول إنه القواد...» وأنتم تقولون إنه الله سبحانه وتعالى!

على أنقاض بشائر العقل الكلامي، الحامل بالقوة لعقلانية دينية، ساد اللامعقول الديني التكفيري: «من تمنطق فقد تزندق»، و «المنطق يقود إلى الفلسفة وما يقود إلى الكفر كفر»... تكفير الفلسفة، حاملة العقل النقدي، ما زال متواصلاً حتى الآن. دول مجلس التعاون الخليجي لا تدرّس الفلسفة في الثانوي، عملاً بتكفير ابن تيمية لها، باستثناء الكويت التي أدخلتها سنة 2007. المغرب أدخل الفلسفة ابتداء من سنة 2003. وحال الفلسفة في معظم الدول العربية كحال الأيتام على مائدة اللئام.

الظواهر التاريخية، كالانحطاط، هي مسار تتعاقب أطواره؛ ما يحدث غالباً فجأة هو لحظة السقوط المشهود. الاتجاه المضاد، الحامل للانحطاط هو اتجاه اللامعقول الديني الذي تجسد في القراءة الحرفية للنص، ظهر باكراً مع الخوارج. لكنه منذ منتصف القرن 11 همّش اتجاه المعقول الديني، متحولاً إلى اتجاه أكثر فأكثر هاذياً وتفتيشياً: مستخدماً ضد «العلوم الدخيلة» أو «العلوم المهجورة»، أي المنطق والفلسفة وعلوم الطبيعة، سلاح التكفير لها وتحريم الاشتغال بها.

سؤال: ما هي مظاهر الانحطاط؟

جواب: أول أعراض الانحطاط هي فرض الرقابة الدينية على العقل، واعتبار النقاش المتعارض في الدين انتهاكاً للمقدس! في ظل الاتجاه إلى المعقول الديني ساد، في بغداد وقرطبة خاصة، الحوار بين الأديان والفلسفات بما فيها الإلحادية. كان مكان هذا الحوار الخصب هو المسجد؛ فيه كان يجتمع الجميع، ويحيّي كل محاور بتحية دينه أو فلسفته، ثم يتبادلون الأفكار والحجج. الحوار بين الأديان هو ترياق إسلام الولاء والبراء النرجسي، المتمركز حول نفسه، والمنغلق على المخالف والمختلف. هذا الإسلام هو مصدر التعصب بالأمس والتعصب والإرهاب اليوم. أعي بأني أكرر، لكنه تكرار بيداغوجي لترسيخ مفاهيم جديدة ومؤسسة.

الحوار بين الأديان والأفكار والمعارف هو فاعل التلاقح بينها جميعاً؛ وهو خميرة الحضارة، التي هي مسارات مفتوحة على التجديد والإصلاح المتواصلين. أما المونولوج، أي تفاوض الذات مع ذاتها،



فهو عرض من أخطر أعراض الانحطاط. وهذا ما حدث في انحطاط الإسلام، حيث ساد الإسلام السنّي الحنبلي بلا منافس، لا من داخله ولا من خارجه؛ حتى الأشاعرة، الناطقين باسم المذاهب السنّية الثلاث [= الحنفي، المالكي والشافعي]، كفّرهم المذهب الحنبلي، لأنه يكفّر، كالمحدّثين، حتى العقل المدجّن بالدين، مثل العقل الأشعري؛ مرشد الحنابلة الوحيد، لفهم النص القرآني وإصدار الأحكام الفقهية هو الحديث؛ ركام الأحاديث التي جعلت كل شيء ديناً وحرمت تقريباً كل شيء! ابن حنبل لم يبح إلا الاستمناء، باعتبار المني فضلة يجوز التخلص منها بكل وسيلة كما قال؛ الاستمناء هو نرجسية جنسية، أي ممارسة الحب مع الذات وتحريمه مع الآخر الجنسي، فهو معادل رمزي للنرجسية الدينية، التي هي أيضاً رفض ممارسة التلاقح مع الآخر الديني، لصالح الاجترار الذاتي للذات الدينية: بشروح على الشروح وحاشية على الحاشية... في تغييب كامل للتجديد، الذي يفترض التلاقح بين الأصيل والدخيل، وبات يسمى: «بدعة مذمومة»!

سؤال: ما هي العوامل التي كانت سبب هذا الانحطاط؟

جواب: كثيرة وإشكالية، داخلية وخارجية، تحتاج وحدها إلى بحث خاص بها ليس هذا مكانه.

كانت القدس، بعد فتح العرب لها، مفتوحة لجميع الأديان. أملى التعصب الديني على السلاجقة في القرن 11 فكرة منع المسيحيين من الحج. شكّل هذا المنع صدمة للوعي الجمعي المسيحي الأوربي. وهكذا ولد مشروع الحروب الصليبية، لتخليص «القبر المقدس» من



«حكم الكفار»، أي المسلمين. بدورها، شكلت الحروب الصليبية صدمة للوعي الجمعي الإسلامي. لماذا؟ لأن «خير أمة أخرجت للناس» (آل عمران، 110)، تحولت من أمة فاتحة إلى أمة مفتوحة. عزا الإسلام الأوطيسط [= المنطوي على ذاته كحلزونه مفزوعة] ذلك إلى غضب الله على المسلمين بسبب اختلاف المذاهب والاجتهاد في الأحكام، وتالياً السقوط في البدع وفي مقدمتها دراسة وتدريس «العلوم المهجورة» أي الدخيلة! ما العمل؟ تحريم الاختلاف في الرأي والاجتهاد وتحريم العلوم الدخيلة التي سببته.

سؤال: فما هي الأداة التي استخدمها الحنابلة للوصول إلى أهدافهم؟

جواب: الخطاب الديني الأوطيسط: هو خطاب الأئمة، والوعاظ والفقهاء والمحدثين زائد عصا السلطان الأيوبي، والسلجوقي والمملوكي. تحالف هذا الخطاب المعادي للمعقول الديني مع عصا السلطان على تحريم دراسة وتدريس العلوم المهجورة، وفي مرحلة لاحقة، أُرغم من كانوا يدرسونها سراً إلى التوبة منها، بتدريس العلوم الشرعية بدلاً منها! سيكون الناطق الأشهر باسم الانحطاط، في القرن 14، هو شيخ الإسلام، ابن تيمية؛ الذي حرم تدريس المنطق، والفلك، والرياضيات والموسيقى؛ وكفّر الشيعة، والمعتزلة، ، والفلاسفة، والمتصوفة وحتى الأشاعرة بمن فيهم حجة الإسلام الغزالي، الذي كفّر قبله اللامتناهي في الرياضيات بما هو شرك بالله، اللامتناهي الوحيد!؛ الأشاعرة، الذين انشقوا عن المعتزلة، ولكنهم احتفظوا بالعقل، لا كمتحكم في النص بتأويله على مقتضى العقل،



كما عند المعتزلة والفلاسفة، بل فقط كخادم مطيع للنص يفسره نحوياً ولغوياً وبلاغياً. . . ليس إلا. العقل الأشعري تبنّته المذاهب السنّية الثلاثة عدا الحنبلي. لماذا؟ لأنه، كالمحدثين، يُحرّم استخدام العقل في الدين، حتى كخادم للدين، كما رأينا في فتوى الترمذي المذكورة أعلاه.

وهكذا كرس الجميع أنفسهم لدراسة وتدريس العلوم الشرعية وحدها لا شريك لها، فغدت هكذا علوم الانحطاط بامتياز!

لم يطارد فقهاء الانحطاط العلوم المهجورة وعلماءها، بل طاردوا أيضاً كتبها في رفوف المكتبات وحرقوها. إحراق الكتب تقليد إسلامي عريق: عندما سأل قائد جيوش القادسية، سعد ابن أبي وقاص، عمر عما عساه يفعل بمكتبة ملوك فارس؟ أمره بحرقها كما يقول الطبري؛ والحال أن الإسكندر الأكبر قبله احتفظ بها، كما لاحظ ابن خلدون في نقد أنيق لأمر عمر بحرقها؛ عثمان أمر بحرق نسخ المصاحف المختلفة عن نسخة مصحفة الحالية؛ والحال أن آباء الكنيسة، وأباطرة روما المسيحية، احتفظوا بالأناجيل المنحولة، التي نشرت منذ 10 سنوات وتقدم الآن معلومات ثمينة عن تأسيس المسيحية! وقائمة حرقنا للكتب طويلة كليلٍ بلا آخر!

في الانحطاط المسيحي، في الحقبة نفسها، سادت الفلسفة السكولاستيك [= المدرسية]، التي تكفلت بمصالحة الإيمان مع العقل: مصالحة الكتاب المقدس مع منطق أرسطو. أما في الانحطاط الإسلامي، فسادت مدرسة القطيعة بين الإيمان والعقل، ساد الهذيان الديني: كان المؤمن يسافر، من الأندلس إلى مصر، ليسأل عما إذا



كان ربط خيط حول إصبعه، لتذكيره بأمر ما، حلالاً أم حراماً! وانتصرت غريزة الموت على غرائز الحياة: الكل يدعو الله، بمناسبة وبغير مناسبة، إلى أن يميته على «حسن الختام»، لا إلى أن يحييه سعيداً في شعب سعيد! وما أشبه الليلة بالبارحة!

هنا ينبغي أن نرى أعراض الانحطاط؛ أما استمرارية العمليات الرياضية فإنها لم تكن حاملة لأي مسار تقدمي، ينشر العقلانية في المؤسسات الاجتماعية الأساسية السياسية، والاقتصادية، والدينية، والعلمية والتربوية.

سؤال: لماذا هُزم العقل في الحالتين اليونانية والإسلامية؟

جواب: أساساً، لأن العقل، في الحالتين، لم يستطع أن يتغلغل لا في النُخب الصانعة للقرار على نحو دائم ولا في الجمهور الواسع، كما حقق ذلك العقل الأنواري، الذي تغلغل في ألمانيا في النخب الصانعة للقرار. وفي فرنسا، في النخب والجمهور المتعلم؛ والسبب عائد إلى ظرف موضوعي، هو غياب المطبعة والصحافة، في الحالتين اليونانية والعربية الإسلامية؛ في الحالة اليونانية انتصر منشدو الإلياذة والأوديسّا في الساحات العامة «أغورا» على العقل الفلسفي، وفي الحالة الإسلامية انتصر الوعّاظ والمحدّثون في المساجد على فقه الرأي الحنفي، وعلى العقل الكلامي والفلسفي عند المعتزلة والفلاسفة، وطبعاً على إرهاصات الفكر النقدي عند المفكرين الأحرار. انتصرت فلسفة الأنوار العقلانية بفضل المطبعة والصحافة، لذلك قال هيجل: «الصحافة هي صلاة الصبح الحديثة»، وكان يستهلّ يومه بقراءتها.



فلاسفة الأنوار لم تنتشر كتبهم، وإنّما عمّمتها الصحافة على الجمهور الواسع. وهذا ما يجعلني اليوم أكثر تفاؤلاً بانتصار العقل الفلسفي والعلمي في أرض الإسلام، بفضل ثورة الاتصالات، التي بدأت تُدخله إلى جميع البيوت وجميع الرؤوس.

وبالمناسبة، أُوجّه نداءً إلى كل وسائل الإعلام في العالم العربي والإسلامي، وخاصة الفضائيات والإنترنت، لتعالج بانتظام مسألة الإصلاح الإسلامي، بل وأتمنى على الأغنياء، الواعين بضرورة وجدوى هذا الإصلاح، إنشاء فضائية متخصصة في خدمة الإصلاح الديني، عبر النقاش المتعارض بين أنصار الإصلاح الديني وخصومه، لتدريب وتطوير الدماغ المعرفي لدى جمهور المشاهدين. وتزرع بذور ثقافة الديمقراطية التي هي النقاش المتعارض. كما أقترح تكوين دار نشر، ورقية ورقمية، تتخصص في ترجمة علوم الأديان، وترجمة الكتابات الأوربية التي طبّقت هذه العلوم على النص اليهودي والمسيحي والإسلامي، لنشر ثقافة الإصلاح الديني في أرض الإسلام فتحاً لشهية النُخب والجمهور الواعي للإصلاح. بإمكان إعلام المعقول الديني أن يلعب منذ الآن دور مدرسة المعقول الديني ويساهم في ظهورها. منذ سبعينات القرن الماضي، مهّدت، أفلام مثل «الرسالة» ومسلسلات مثل «عمر بن عبد العزيز»، لهجمة الإسلام التقليدي والسياسي المتواصلة. لأن سيناريوهاتها كتبت من منظور إسلام الإيمان، إسلام المعجزة، إسلام الفكر السحري، الذي يلغي قوانين الطبيعة وقوانين العقل؛ إسلام عبادة الأسلاف، الذين يُقدمهم إسلام الإيمان للجمهور كأنصاف آلهة: «كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، كما يقول حديث. ألهمتهم، في الماضي البعيد، العناية



الربانية كل ما قالوا وكل ما فعلوا. وهذا هو الميتا-تاريخ، الذي يصنعه أسلاف تحولوا، بعد تحررهم من سجن الجسد، إلى أرواح خالصة كلية العلم والقوة. الميتا-تاريخ، لا علاقة له بالتاريخ، كما وقع فعلاً. أحد أبرز أمثلته، أمر عمر للشمس بأن تؤخر غروبها إلى أن ينتصر جيشه في المعركة.



7 ــ من أجل انتصار دين العقل

فاعلو هذا الانتصار المأمول هم 3: التعليم، والخطاب الديني المستنير وإعلام المعقول الديني. تقديم هذا الإعلام المنشود مسلسلات وأفلام وأبحاث من وجهة نظر إسلام التاريخ، أي وقائع التاريخ كما وقعت فعلاً أو ترجيحاً. التاريخ الذي صنعه أسلاف يخطئون ويصيبون، ويختلفون، ويتحاربون على الولاية لا على الدين، وتمزقهم، كجميع الناس، صراعات غريزية، وأمراض نفسية هاذية أحياناً، ورغبات متناقضة، ومطامح دنيوية لا رائحة للدين فيها. كما فعل ابن عباس عندما كان والياً لعلي على البصرة، فقد استولى على أموال بيت مال المسلمين وفر بها إلى مكة. وعندما كتب إليه الإمام علي مطالباً إياه برد الأموال المنهوبة إلى بيت المال قائلاً له: «كيف ستلقى الله بأموال المسلمين؟» أجابه ابن عباس «حَبر هذه الأمة» قائلا: «لأن ألقى الله بأموالهم خير لي من أن ألقاه بدمائهم مثلك». استلهاماً لعبادة الأسلاف، المنزهين عن الخطأ والخطيئة، قرر الفقهاء السنة، بمذاهبهم الأربعة، أن سرقة أموال بيت مال المسلمين لا حد فيها. لأن في جمعها شبهة ظلم. بينما قرروا قطع يد السارق، من غير الأسلاف، في ربع دينار وقيل في ربع درهم! مسلسلات وأفلام تلفزيونية عن مثل هذه الوقائع وهي كثيرة، وعن صراع الصحابة على



جمع القرآن، وحرق المصاحف المنافسة لمصحف عثمان المتداول الآن، تقدم للمشاهد بعض الوقائع التاريخية، مثل مشهد ابن مسعود وهو يقول عن مصحف عثمان: «لو كنت أنا الخليفة لأحرقت مصحفه وأبقيت مصحفي» أو مشهد والي المدينة الأموي، وهو يحرق «ألواح» أم المؤمنين حفصة التي قدمها له أخوها، الشهير عبد الله ابن عمر، في يوم دفنها، بعد أن أبت على عثمان حرقها مع المصاحف الأخرى. أو مشهد الخليفة القادر، وسط الفقهاء السنّة، وهم يكفّرون من يقرأ مصحف ابن مسعود، الذي ظل متداولاً طوال 5 قرون، سراً طبعاً. والخلاف على المصاحف لم يكن هيناً. إذ إن رسالة عثمان إلى الأمصار كفّرت من يحتفظ بالمصاحف المحروقة. مسلسلات وأفلام أخرى أيضاً عن الفتنة الكبرى، انطلاقاً من كتاب طه حسين وهشام جعيط، ومسلسل أو فيلم آخر عن «الفتنة» الدائمة في أرض الإسلام، انطلاقاً من كتاب «الفتنة»، للمستعرب الفرنسي، جيل كيبيل: الإسلام الإمبراطوري محكوم بجدلية الجهاد الخارجي أو الفتنة الداخلية؛ ومسلسلات و/أو أفلام عن شهداء الإسلام الصوفي مثل الحلاج والسهروردي، وعن أقطاب الصوفية مثل ابن عربي، الجيلي أو البسطامي.

عرض هذه المسلسلات والأفلام، سيدشن انطلاق مسار إصلاح الإسلام بقوة، بفضل تحرير الوعي الإسلامي الجمعي من رق عبادة الأسلاف النفسي. فعلى ذلك يتوقف نجاح الإصلاح الديني، وتالياً انتصار المعقول على اللامعقول، وغرائز الحياة على غريزة الموت، حتى لا نغرغر بعد اليوم مع السيد حسن نصر الله: «نحن نحب الموت بقدر ما هم يحبون الحياة». هم، هم اليهود!



سؤال: ما هو تعريفك للمعقول الديني؟

جواب: هو دين العقل: يجب أن تتقدّم علوم الأديان الدين، حاملة المشعل الذي يُنير له الطريق، لإنتاج ما أسماه كانط «دين العقل»: دين المجتمع المفتوح النوافذ والأبواب على جميع التيارات الدينية والزمنية، بلا وصاية الرقيب الديني على المؤمنين، ولا على المواطنين: دين «نبوة العقل» عند المعري، دين الاعتراف بحقوق الإنسان واحترامها؛ وباختصار، دين العقلانية الدينية التي تقبل، بلا عُقد ولا شعور بالذنب، مؤسسات، علوم، وقيم، وقوانين، وحقائق العالم الذي نعيش فيه.

دين العقل، هو الدين الذي سيسود بفضل إصلاح الإسلام ودراسته وتدريسه بعلوم الأديان، على أنقاض دين التعصب والهذيان الديني؛ الدين المنفلت من عقال العقل ليتحول إلى خرافة وإرهاب. وهذا ما نعيشه الآن في أرض الإسلام، بين أشياء أخرى، في الهذيان الفصامي عن اقتراب نهاية العالم: بعودة الإمام الغائب في إيران، وبالمعركة الفاصلة بين المسيح والمسيح الدجّال، في فلسطين عند السنّة. دين العقل هو الذي أخذ اسم تأويل النص لصالح العقل عند المعتزلة والفلاسفة لتكييف النصوص الدينية مع قوانين قوى من أقوى النصوص الدينية.

سؤال: كيف سيجعل الإصلاح الديني، بتدريس ودراسة الإسلام بعلوم الأديان، والفلسفة وحقوق الإنسان من المسلم فرداً منفتحاً على الآخر؟

جواب: بفضل تعميم علوم الأديان على المدرسة والجامعة. في



أوربا وفرنسا أظهر استطلاع أخير أن 52 في المائة من الفرنسيين يعتقدون أنهم: «يجدون حقائق أساسية في كثير من الأديان»، وفقط 6 بالمائة يعتقدون بأنهم: «لا يجدون الحقيقة إلاّ في دين واحد»، وهؤلاء هم المتعصّبون.

قارن هذا بما يجري في أرض الإسلام. أراهن على أن 9 من 10 على الأقل من المؤمنين السنّة والشيعة سيعتبرون أن دينهم هو الدين الحق، وأن الثاني في ضلال مبين. لن نخرج من النرجسية الدينية، التي ما زالت راسخة في 6 بالمائة من الفرنسيين، إلى التسامح الديني الذي انتشر بين 52 بالمائة من الفرنسيين، إلا بتعميم تدريس علوم الأديان والفلسفة وحقوق الإنسان على المدرسة والجامعة وعلى تلك الجامعة الأخرى التي لا جدران لها أعني الإعلام.

الإصلاح الديني كفيل بنقلنا من الجمود الديني إلى التجديد الديني، وبتعليم المسلمين في أرض الإسلام الانفتاح على جميع الثقافات، واحترام الآخر. بالمثل، يعلم المسلمين في مهاجرهم التأقلم مع التهجين الثقافي، أي امتزاج وتساكن عدة ثقافات في رأس شخص واحد. كما قد يحررهم من الخطاب التضحوي الصبياني: «نحن ضحايا بريئة للقرية الظالم أهلها» [الجابري]، بما هو خطاب هذيان اضطهاد، يُصبينهم، ويحصّنهم لاشعورياً ضد استقبال النقد بصدر رحب، ويعفيهم لاشعورياً، أيضاً من ممارسة النقد الذاتي بشجاعة: علامتي النضج النفسي والفكري؛ ويحررهم ومن ثقافة «التمس لأخيك سبعين عذراً»؛ وقد يعلمهم عدم التخلي عن ملكة الحكم، وعن التفكير بأنفسهم دونما حاجة للفتاوى... وقد يُدخل العرب والمسلمين، الذين تتفشى فيهم الأمية، والجهل، والتعليم



الرديء»، إلى مجتمع المعرفة الذي دخلته البلدان المتقدمة. إسرائيل تأتي فيه الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية، بينما يقف العالم العربي والإسلامي منه على سنوات ضوئية.

وهكذا يمكن، بالإصلاح الديني، نقل المسلم النرجسي الحالي من الهذيان الديني إلى العقلانية الدينية، وإلى الواقعية والتواضع. وقد يحرره الإصلاح من الرؤية المانوية، من ثنائية: الخير هنا والشر هناك، نحن الضحايا وهم الجلادون، إلى آخر مسلسل إسقاط كراهيتنا ووساوسنا على الآخرين. وهو السلوك الذي جعل منا كارهين للبشرية ومكروهين منها. وهذا هو الينبوع الأول للإسلاموفوبيا. فعسى أن ينقلنا الإصلاح من هذه الرؤية التبسيطية حتى الكاريكاتور، للأنا والآخر، إلى مفهوم التشعب عند ادغار موران، حيث يتساكن الخير والشر تحت سقف واحد؛ التشعب شبيه بإله جانوس، ذي الوجهين المتعارضين. بالإصلاح الديني، يمكننا بمدرسة العقلانية الدينية، إنتاج المسلم المؤمن والعصري، في نفس الوقت، وهو اليوم عملة نادرة. تشخيص المعري لمسلم عصره ينطبق على مسلم عصرنا: «اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا دين، وآخر ديّن لا عقل له». بإمكاننا بمدرسة العقلانية الدينية تجاوز هذا المؤمن، كما تجاوزته بها الديانات الأخرى المعاصرة، لنصل إلى مسلم ذي دين وذي عقل معاً... وتخرّج كلياتنا الدينية باحثين ذوي فكر نقدي يمكّنهم من التمييز بين الحقيقة والمعتقد: الحقيقة العلمية تخضع للبرهان، إذن عامة. أما المعتقد، فلا حاجة له للبرهان، إذن خاص بكل مؤمن. ولا يجعلهم يضحون بالحقيقة الموضوعية من أجل قناعاتهم الذاتية، أي معتقداتهم...، ويميزون بين التاريخ والأسطورة في دينهم ذاته، وبين الواقع والرغبة،



ويبحثون في اللامعقول بالمعقول لتفكيكه. أمثال هؤلاء الباحثين ضروريون لنعرف من نحن، وكيف تكوّن الإسلام تاريخياً، وما هي المصادر التي استقى منها، وما هي عوائقه، التي أعاقته عن دخول الحداثة، وما زالت؟ وهكذا سيسقون الفكر الديني بنُسْغ تحليلي جديد، بحيوية تحليلية جديدة، قلّما عرفها في تاريخه الحديث، بينما تشبَع بها الفكر الديني في العالم حتى التخمة. هذا رهان كبير إذا خسره العالم العربي والإسلامي خسر نفسه.

الإصلاح الديني علاج ذهني جماعي من القمع المستبطَن، من الأغلال غير المرئية، التي تكبّل عقل المسلم وتسترقّه نفسياً، وتشده بألف حبل وحبل إلى عبادة الأسلاف، ليعيش في القرن الحادي والعشرين، كما عاشوا في القرن السابع؛ وأن يجاهد كما جاهدوا ليعيد خلافتهم من «الأندلس إلى حدود الصين»، كما قال قائد الجيش الإسلامي في العراق لصحافيين فرنسيين اختطفهما...

سؤال: ناصر بن رجب: مفتاح إصلاح الإسلام في نظرك هو الانتقال من إعلام وتعليم اللامعقول الديني، إلى إعلام وتعليم المعقول الديني، بتدريس علوم الأديان والفلسفة وحقوق الإنسان. فكيف يمكن تحقيق هذا الهدف في إصلاح الإسلام الفرنسي والأوربي؟

جواب: الإسلام الفرنسي - الأوربي محظوظ. فليس مطالباً بالانتقال من اللامعقول السائد إلى المعقول المنشود، كما في حالة غالبية البلدان العربية والإسلامية. بل مطلوب منه فقط أن يتصالح مع الدساتير والقوانين الوضعية، والنظم التربوية والقيم المشتركة، العابرة



للثقافات، المطبقة في الاتحاد الأوربي الذي هو مواطن أو مقيم فيه. حسبه أن يعيد تعريف نفسه بالحرية، و بالعلمانية، والديموقراطية وحقوق الإنسان. وهكذا يستطيع الإسلام الأوربي أن يقطع مع الجمود الديني، السائد في معظم بلدان المنشأ. سرَّني عندما قرأت لمحمد الموسوي، رئيس المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، وهو مغربي، قوله: «الإسلام الفرنسي ليس الإسلام المغربي ولا الإسلام السعودي». مما يدل على فهم دقيق للمعادلة الدينية المعاصرة: كل دين هو ابن ظروف الزمان والمكان. وليس وصفة سحرية عابرة للتاريخ، كما يتوهم فقهاء الإسلام التقليدي والسياسي. على الإسلام الأوربي أن يأخذ الدرس من كيفية اندماج الأقلية لليهودية في الأمة الفرنسية. فقد قبلت التخلي عن الشريعة اليهودية، مقابل دمج نابليون لها في الأمة الفرنسية العلمانية الوليدة سنة 1807؛ وأن يأخذ أيضاً الدرس من تركيا المسلمة وحكومتها الإسلامية التي أعلنت، على لسان رئيسها أردوغان، أنها تقبل الانضمام للاتحاد الأوربي مقابل تخليها عن الشريعة الإسلامية، وبقبول جميع القيم المشتركة في الاتحاد الأوربي، وقرنت القول بالفعل، فعدلت الدستور في سنة 2004 إلى 2006 بتطهيره من بقايا الشريعة، مثل عقوبة الزنا والإعدام ومنع المسلم من تغيير دينه. فأصبح لا يختلف في شيء عن أي دستور علماني أوربي.

فكيف لا يقبل المهاجرون والمسلمون الأوربيون الاندماج في هذه الثقافة العلمانية التي اندمج فيها اليهود والأتراك، مقابل تقريباً لا شيء: أن يقولوا للشريعة باي باي؟



سؤال: كيف يمكن تحقيق ذلك؟

جواب: أساساً بتكوين الأئمة تكويناً دينياً حديثاً، يستلهم برنامج المعهد الأعلى لأصول الدين، التابع للجامعة الزيتونية، والدساتير والقوانين الأوربية، ووثائق حقوق الإنسان، كالاتفاقية الدولية لمنع التمييز ضد المرأة، التي يحسن بهم استلهامها في خطب الجمعة ودروس المساجد، والاتفاقية الدولية لحماية الأقليات، التي ينبغي أن تكون الإطار القانوني لمطالب مسلمي أوربا، وأن يحتكموا للقضاء الأوروبي، وعند الإقتضاء، إلى محكمة حقوق الإنسان الأوربية، بدلاً من الاحتكام إلى الانتفاضات والحرائق العدمية، التي تجعلهم مكروهين ومخيفين أكثر، وبلا مستقبل أكثر.

في الواقع توجد ثغرات فادحة أحياناً في تكوين الأئمة. يوم وفاة ملك بلجيكا في التسعينات، قال إمام باريسي في خطبة الجمعة: «اليوم نقص منهم واحد» أي من الكفار. وبالرغم من أن إمام الجمعة في جامع باريس، معتدل عادة في خطبته، إلا أنه ركز مؤخراً خطبته على تفسير الآية السجالية: «وقالت اليهود عُزير ابن الله»... وهذا لا يساعد على حوار الأديان في فرنسا، الذي يمارسه بكل شجاعة واقتدار مدير جامع باريس، د. دليل أبو بكر. في القرآن، كما يقول أبو حامد الغزالي «آيات مفضولة وآيات فاضلة». ويليق بالأئمة استخدام الآيات الفاضلة، وهي لا تقل عن 75 آية، توصي بالتسامح واحترام جميع الأديان بما فيها الوثنية، مثل «لا إكراه في الدين»، و «إن الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، من آمن بالله وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون». سلوك مدير جامع باريس، دليل أبو بكر ومفتي مرسيليا الشيخ صهيب بن الشيخ، قدوة حسنة في



هذا المجال لأئمة فرنسا وأوربا وحتى العالم الإسلامي. لنحت إسلام مسالم كيّف تقاليده مع الواقع المعاصر، وفي أوربا مع واقع المجتمعات الأوربية.

سؤال: ينظر الأوربيون إلى الإسلام كتهديد، فما العمل لتغيير هذه النظرة؟

جواب: لن يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. المسلمون الأوربيون مدعوون للتخلي عن عاداتهم الميتة والمميتة، مثل ختان البنات، وذبح الأضاحي في المنازل، وارتداء الحجاب والنقاب والبرقع، وتعدد الزوجات، الذي هو أحد أهم الأسباب لمتاعب المسلمين الأوربيين، مثلاً في فرنسا، 30 ألف عائلة متعددة الزوجات أنجبت 600 ألف طفل بمعدل 14,5 لكل عائلة؛ معظمهم فشلوا في المدرسة، وهم الذين جعلوا نسبة المسلمين في السجون الفرنسية تكاد تعادل نسبة المساجين الفرنسيين: 49,6%.

من مهام الأئمة، توعية المؤمنين بخطر تعدد الزوجات، والإكثار من الأطفال للحصول على المنح العائلية، محوّلين فلذات أكبادهم إلى سلعة: ثمن الطفل 200 يورو شهرياً إلى سن 18 عاماً. وبعدها يصبح نزيل السجون بالفعل أو بالقوة!

على الحكومات الأوربية أن لا تغضّ الطرف عن تعدد الزوجات. لا يستطيع التونسي في تونس، التي منعت تعدد الزوجات في 1956، أن يمارس التعدد، ويستطيع أن يمارسه في فرنسا وأوربا، التي لم تعرف تعدد الزوجات في تاريخها. تعدد الزوجات جاءت به اليهودية،



وعنها أخذه الإسلام. لكن تعدد الزوجات لا وجود له لا في يهود إسرائيل ولا في يهود الشتات.

كما على الحكومات الأوربية أن تكافح كل مظاهر العنصرية ضد المسلمين، وأن تتبنّى جميعاً الطريقة الأمريكية في التمييز الإيجابي لصالح أبناء المهاجرين. مثلاً، يشارك مترشحان، أبيض وأسود، في منافسة علمية ويتعادلان في العلامات، فيتم اختيار الأسود. وعلى المؤسسات الثلاث المؤطرة لمسلمي فرنسا: جامع باريس، والمجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، والفيدرالية المغربية لمسلمي فرنسا، أن تتعاون فيما بينها لتوعية مسلمي فرنسا بواجباتهم كمواطنين فرنسيين، أو مهاجرين ضيوف وأن تدافع عنهم ضد التجاوزات.

سؤال: الشباب المسلم الفرنسي والأوربي هو الأخير في النجاح المدرسي، والأول في ارتياد السجون، فكيف يمكن أن تشارك النخب المسلمة الأوربية في علاج هذا المشكل؟

جواب: نعرف من تاريخ الأقليات، أنها نجحت اجتماعياً واندمجت في المجتمعات المضيفة بفضل التعليم. لماذا؟ لأنها تحكّمت في معدلات نموها الديمغرافي. بالمقابل، فشلت الأقلية الإسلامية حتى الآن في نزع فتيل قنبلة الانفجار السكاني، التي تشكل العائق الأول لنجاحها المدرسي والمهني واندماجها.

الإسلام الأوربي مدعو إذن لوعي ضرورة ترشيد ديمغرافيته، ووعي ارتباط هذا الترشيد برهان التعليم والتكوين المهني: بلا تعليم، بلا تكوين يؤهل الشباب المسلم للعمل في مهن المستقبل، سيبقى



السجن هو مستقبلهم المضمون كجانحين، والحال أنهم بنجاحهم في الترشيد الديمغرافي، وتالياً بنجاحهم في الاندماج، يمكنهم لعب دور طليعي في مدّ جسور الحوار والتضامن والعمل المشترك، بين أوربا وبُعدها المتوسطي، والعربي الإسلامي، لإنجاز ما أسماه جيل كيبل: «الشراكة التكاملية بين ضفتي البحر المتوسط»، من أجل إقليم أوربي ـ متوسطي مسالم، متضامن، متنوع ومتحد. يجمع بين تنوع الثقافات وكونية قيم حقوق الإنسان.

مسلمو أوروبا يعيشون في مجتمع حضارة المعرفة، أي حضارة الكمبيوتر. الإسلام، الذي يمر بإعادة التأسيس، لا يمكن له أن يكون في حالة اشتباك أو تناقض مع هذه الحضارة، بل عليه أن يكون معها في حالة وئام. لذلك على نخب الإسلام الأوربي أن تعيد اختراع إسلامها على مقاس القيم المشتركة والمعايير الأوربية الجماعية...

إصلاح الإسلام الأوربي يعني أن يصبح في نهاية المسار إسلاماً آخر غير الذي كانه. مختلفاً في شعائره، وممارساته، وطبيعة علاقته مع الآخر، الذي لم يعد ساكن «دار الحرب»، بل أصبح المواطن الذي يشاركه في حقوق المواطنة، في بلد غدا بلده هو أيضاً. هذه ستكون روح الإسلام الأوربي الذي أعيد تأسيسه أي إصلاحه.

سؤال: هل لك أن تلخص للقراء في كلمات معدودة الخطوط الكبرى للإصلاح الديني؟

جواب: للقرّاء ولصنّاع القرار، أقول في بداية القرن العشرين كان الخيار: إصلاح أم ثورة؟. وفي بداية القرن الحادي والعشرين غدا الخيار إصلاح أم فوضى دامية على الطريقة الصومالية مثلاً؟. اختارت



أوربا الغربية الإصلاح، فقطعت الطريق على الثورة. فهل سيختار العالم العربي والإسلامي الإصلاح لقطع الطريق على الفوضى؟

الفوضى اليوم تعني أن يصبح العالم، وكل بلد فيه، غير قابل للحكم. فاختاروا إذن الإصلاح الديني، كمدخل للإصلاح الشامل السياسي، والاقتصادي، والعلمي، واللغوي والتربوي. الإصلاح الديني هو اليوم المدخل لقطع الطريق على هجوم الجنون في التاريخ، على تحويل المؤسسات التعليمية والإعلامية إلى منابر للتكفير والفتاوى، المضحكة حيناً والمبكية حيناً، وعلى تحويل المستشفيات إلى مسالخ لقطع الأيدي، وتحويل الساحات العامة إلى أمكنة يتبارى فيها المصابون بالطاعون العاطفي على رجم المحبين، وشنق المفكرين الأحرار، وتحويل عواصم أرض الإسلام إلى أكثر من طهران، يصطاد فيها «حراس الثورة» الشباب الجامعي كما يصطادون الأرانب. المدخل إلى الإصلاح يكون:

1 - بالانتقال السريع من إعلام اللامعقول الديني إلى إعلام المعقول الديني، ومن مدرسة اللامعقول الديني، التي تُفبرك جموعاً من المتعصّبين، كلّ واحد منهم مشروع شهيد، أي قاتل وقتيل، إلى مدرسة المعقول الديني والدنيوي، الكفيلة بوضع حد للقراءة الحرفية للنّص، وبتدريس الإسلام بعلوم الأديان، الكفيلة بإخراجنا من الرؤية الجامدة للإسلام، وبتفكيك الرواية الخيالية، حتى الكاريكاتور، لنصوصه ولرموزه المؤسّسة، بتكوين نُخب قادرة على التفكير في تراثها، وخاصة على إعادة التفكير في مشروعها العقلاني المستقبلي.

2- كما يكون باقتباس التعديلات، التي أدخلتها حكومة حزب العدالة والتنمية الإسلامي التركي على دستور سنة 2006 مثل إلغاء



عقوبة الإعدام والزنا والاعتراف، في دساتير البلدان الإسلامية، للمسلم بالحق في تغيير دينه طبقاً للمادة 18 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

3- كما يكون بالمبادرة إلى إصدار قوانين أحوال شخصية، تستلهم مجلة الأحوال الشخصية التونسية، التي دشنت ورشة إصلاح الإسلام التونسي المفتوحة منذ 54 عاماً، كما فعل المغرب، الذي يحكمه ملك مُصلح يحمل لقب أمير المؤمنين، لوضع نهاية لإقصاء فقهاء الجمود الديني للمرأة من الفضاء العام، أي من الشارع والمدرسة وأماكن العمل، جاعلين المسلمة المثالية هي تلك التي لا تخرج إلا مرتين: مرة من بيت أبيها إلى بيت زوجها ومرة من بيت زوجها إلى القبر. والحال أن نساء النبي خرجن في حياته وبعد مماته، وعائشة خرجت لقتال علي في معركة الجمل، وكانت تُلهب جيشها حماساً، حتى قال علي: «أعقروا الجمل وإلاّ فنيت العرب اليوم». وهكذا لم تطبّق أمهّات المؤمنين، لا في حياة النبي ولا بعد وفاته آية: «وقَرْنَ في بيوتكنّ». فبأي منطق يُطلب من نساء اليوم تطبيقها؟

هذه التدابير الضرورية كفيلة بتدشين مسار الإصلاح الديني، لإخراج الإسلام من سكة الندامة التي أدخلته فيها عصور الانحطاط إلى سكة السلامة: سكة الإصلاح، وحوار الأديان ومصالحة الإسلام مع الحداثة، أي مع العالم الذي نعيش فيه.

لكن ذلك غير مضمون، إلا إذا استطاعت النخب تحرير عقول القطاع التقليدي من المسلمين، نخباً وجمهوراً، من شلل عبادة الأسلاف؛ المسؤول عن تمردهم على جديد عصرهم، بدعوى أنه مخالف لما قاله وصنعه السلف الصالح، الذي حصرته الأسطورة



الدينية في خرافة حديث: «خير الأجيال، جيلي فالذي يليه فالذي يليه».

إليكم مثلاً عن الشلل الذي تسببه عبادة الأسلاف لدى القبائل البدائية التي بقيت منذ آلاف السنين بدائية. يذكر مرسيا إلياد، في كتابه «مظاهر الأسطورة»: «أن الأنثروبولوجي، ستريهلو، كان عندما يسأل قبيلة ارنتأ الأسترالية عن سبب ممارسة بعض الشعائر يجيبونه: لأن أسلافنا أمروا بذلك»؛ في غينيا الجديدة، كان أعضاء قبيلة، الكلاي، «يرفضون تغيير طريقة حياتهم قائلين: هكذا كان يفعل أسلافنا [وهكذا علينا أن نفعل]. وإنّا على آثارهم لمقتدون» (. . .): «كما روى ذلك أسلافنا، منذ خُلقت الأرض، هكذا علينا أن نذبح، وكما تصرف أسلافنا في سابق الزمان، علينا أن نتصرف نحن مثلهم اليوم»، الدعاء نفسه نلتقي به عند الهندوس: «علينا أن نفعل ما فعلته الآلهة في البداية»، «وهكذا فعلت الآلهة وهكذا يجب أن يفعل الإنسان». (مرسيا إلياد، «مظاهر الأسطورة»، ص 7).

هذا الشلل النفسي للأسلاف، هو الذي نلتقي به نحن اليوم عند جميع فرق أقصى اليمين الإسلامي ذي الذهنية السحرية، البدائية والفصامية. مما جعلهم يعيشون في عصرهم بذهنية ونفسية وتقاليد عصور خلت!



8 ـ من التربية الجنسية الدينية إلى التربية الجنسية العلمية

إصلاح التربية الجنسية، بتدريسها بعلوم النكاح والطب والنفس، في المرحلتين الابتدائية والثانوية رهان أساسي، لأنه يساعد على استبطان الأجيال الصاعدة للحرية الجنسية، بما هي تصرف الفرد المستقل في جسده، وفرجه، وبما هي معانقة لجميع غرائز الحياة، ونفور وتنفير من غريزة الموت، بما هي إماتة للجسد بالحرمان، مَن استبطن الحرية الجنسية، لن تسكن رأسه شياطين التعصب الديني، أي الخوف الهيستيري من المختلف والمخالف.

وراء جل حركاتنا، وسكناتنا، ورغباتنا، وأحلامنا وفانتزماتنا، يوجد محرك خفي هو الرغبة الجنسية، التي ليس من السهل ترويضها. طبعاً توجد عدة انعطافات كفيلة بحرف الغريزة الجنسية، عن التحقيق، أشهرها التسامي. التسامي بها في المناشط السياسية، والإنسانية، والدينية، والعلمية، والأدبية أو الرياضية. اتضح مثلاً، أن الانغماس في النضال الحزبي يضعف الرغبة الجنسية، وكذلك الانغماس في المناشط الفكرية. سبنيوزا، أحب في الـ 22 عاماً أستاذته في اللغة اللاتينية. لكن سرعان ما هجرته، بعد بضع علاقات جنسية، وتزوجت غيره؛ صدمَهُ هجرانها، فلم يمارس الحب بعدها. تعويضاً لحبه



الضائع، كتب مأثرة حياته «الإطيقا» أي الأخلاق. ربحت البشرية المفكرة كتابه، وخسر هو حياته الجنسية! ربما، ليس صدفة، أنه مات في الـ 45 عاماً؛ كانط، لم يمارس الحب إلا مع الكتب؛ الإمام الشافعي لم يتزوج، ولم يعرف عنه أنه امتلك جارية أو غلاماً. وما زال الشوافع يتكتمون خجلاً عن حقيقة أن إمامهم لم «يمتلك نصف دينه»، عكساً للأئمة الستة الثلاثة. والمعري لم ينكح يوماً، وكذلك خليل جبران...

التسامي بجميع الرغبات الجنسية هو، في نظري، انتحار. «ليلة واحدة كان الصباح لها جبيناً»، تساوي التسامي بالإبداع الأدبي والفني والفلسفي العمر كله.

عدوانية الإنسان، المبرمجة في دماغه منذ ألوف السنين، عندما كان كانيبال أي يأكل لحوم البشر، سحيقة الغور. تتجلى في السلوك العدواني: من العدوان على الرضيع إلى إعلان الحرب! حسب الفرد أن يتسامى بمخزونه العدواني في المناشط المهنية، والعلمية والإبداعية. مثلاً، السادي بإمكانه بالتسامي بساديته بأن يصبح جراحاً جيداً. يمكن لكل منا أن يتسامى برغباته الجنسية، التي يمنع تحقيقها القانون الوضعي العقلاني، مثل الرغبة في الاغتصاب، المتأصلة في النفسية البشرية الذكرية. ألم يعاين فرويد: «ما من رجل حللته إلا وهو يودّ الاغتصاب»! أما التسامي بجميع رغباتنا الجنسية، فهذا عقاب ذاتي قاس ووخيم العواقب. بإمكاننا أن نحقق رغباتنا المنحصرة في الجنس بين الراشدين الراضين، ونتسامى بالباقي وهو كثير.



رهانات الانتقال من التربية الجنسية التقليدية والدينية إلى التربية الجنسية العلمية:

هذه الرهانات الكبرى هي:

1 ـ تحرير ضمير الأجيال الطالعة الأخلاقي، من الشعور بالعار والشعور بالذنب من ممارسة الحرية الجنسية، أي الجنس بين الراشدين الراضين.

2 ـ تفكيك مشروعية التربية الجنسية الدينية، بالعلم، هو المدخل للتحرير من مشاعر العار والذنب.

3 ـ التأكيد على أن الحرية الجنسية حق طبيعي، من حقوق الإنسان، لا تفريط فيه.

4 ـ توضيح الفرق بين غاية الجنس الحيواني وغاية الجنس البشري: الأول غايته الإنجاب حصراً؛ والثاني غايته المتعة الجنسية. أما الإنجاب فنتيجة طبيعية له، للحفاظ على النسل وليس غايته الحصرية.

5 ـ الصراحة الجنسية هي وسيلة التربية الجنسية العقلانية، لتنوير الطفل والمراهق بحقائق الجنس العضوية والنفسية، لوقايته من السقوط ضحية القيل والقال الجنسي.

الشعور بالعار من ممارسة الحرية الجنسية، زرعته التربية الجنسية التقليدية القائلة بأن على الأبناء ممارسة الجنس كما مارسه آباؤهم، وعلى البنات ممارسة الجنس كما مارسته أمهاتهن، أي فقط بالزواج «على سنّة الله ورسوله»! لكن التربية الجنسية العلمية تؤكد لنا أن الآباء والأمهات لم يعودوا اليوم، في عصر انتقال البشرية من حاكمية العقل



الإلهي، أي الدين، إلى حاكمية العقل البشري، أي العلم والتكنولوجيا وحقوق الإنسان، يشكلون مثلاً أعلى لأبنائهم.

الآباء والأمهات ضحوا بحقوقهم الإنسانية على مذبح تقاليد ميتة ومميتة، وأوامر ونواهي دينية غدت متقادمة. أما أبناؤهم، فما عادوا يقبلون بهذه التضحية، الوخيمة العواقب على صحتهم الجسدية والنفسية. إذ إن كبت غرائز الحياة الجنسية، بحصرها في الجنس داخل الزواج، يؤدي إلى الكبت، أي الحرمان. والكبت سبب لأمراض نفسية وجسدية قد تؤدي إلى الجنون.

الشعور بالذنب ناجم عن انتهاك أوامر ونواهي الأخلاق الجنسية الدينية، القائلة بتحريم جميع الممارسات الجنسية، بين الراشدين الراضين، خارج الزواج الشرعي؛ يمكن تلخيصها في: الاحتفاء بالبكارة؛ تحريم الجنس خارج الزواج الشرعي، أو خارج اغتصاب «ملك اليمين» (المعارج، 30)، أي الإماء اللواتي يُبعن في سوق النخاسة، للاستمتاع الجنسي، وعددهن غير محدود: مثلاً الخليفة المتوكل العباسي امتلك منهن 800 جارية ونكحهن جميعاً على ذمة المؤرخين؛ تقذير الأعضاء الجنسية بما هي نجسة، تجب الطهارة من مجرد لمسها ولو سهواً؛ اعتبار المني «ماء مهيناً» (8، السجدة)، بينما هو علمياً، أنقى ما في الإنسان السليم، والذي هو في وقت واحد مصدر المتعة الجنسية القصوى عند الرجل ومصدر الإنجاب. اعتباره مهيناً، أي حقيراً ونجساً يجب غسل الجسد كله منه للصلاة، والحال أن البول والغائط لا يوجبان الاغتسال الكامل، بل الجزئي فقط: الوضوء!

الله القرآني، عندما يريد تحقير الإنسان وتذنيبه، يذكّره بأنه خلقه



«من ماء مهين»؛ الحث على العفة بما هي الامتناع عن ممارسة الحب خارج الزواج وخارج اغتصاب العبيد؛ إدانة غرائز الحياة، من الرغبة في الاستمتاع الجنسي إلى الرغبة في الاستمتاع بالفن: غناء، موسيقى، رسم، نحت وتصوير... ؛ وأخيراً شيطنة التربية الجنسية الدينية للجسد حياً ـ ويا للتناقض ـ: تقديسه ميتاً! ـ لماذا؟ لأنه هو الأداة الشيطانية لانتهاك المحرمات الجنسية الدينية. فهو كما قال قائلهم: «الجسد لباس الروح البغيض». إماتته، بالحرمان الجنسي أو بالشعور الساحق بالعار والذنب، عقاب عادل له!

تفكيك «علم» الأجنة القرآني

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين؛ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين؛ ثم خلقنا النطفة علقة؛ فخلقنا العلقة مضغة؛ فخلقنا المضغة عظاماً؛ ثم كسونا العظام لحماً (...) فتبارك الله أحسن الخالقين». هذه الآيات، لو شاء سوء حظ طالب، في كلية طب، وكتبها في ورقة امتحانه، لما سقط في الامتحان وحسب، بل ولطرد منها! الإنسان علمياً لم يُخلق من طين، خُلق آدم من أديم الأرض، من صلصال، هي أسطورة سومرية ترجمها حزيقال في سفر التكوين وعنه أخذها القرآن؛ تسلسل خلق الجنين نطفة، ثم علقة، ثم مضغة... رواية خيالية لا علاقة لها بأطوار تكون الجنين. المرحلة الأخيرة في «علم» الأجنة القرآني هي «وكسونا العظام لحماً».

فماذا يقول علم الأجنة الطبي؟ إن تطور الإنسان منذ 3,7 مليار عام، ظهرت بكتيريا وحيدة الخلية في المحيط البدائي، ومنها تطورت «شجرة الحياة» النباتية والحيوانية. ومن الفرع الحيواني، وفي مرحلة



متأخرة جداً، ظهرت الحيوانات الثديية، ومنها قرد راما؛ ومن هذا القرد تطور الإنسان، منفصلاً عن ابن عمه الشامبانزي، منذ 7 مليون عام فقط: يشترك الإنسان المعاصرمع الشامبانزي في 98,5% من الجينات (نسبة الجينات تحدد قرب أو بعد انفصال حيوان عن شجرة نسب الآخر بمن في ذلك الحيوان الناطق)، في حين أنه لا يشترك مع الزهرة إلا بـ 2% من الجينات، ولا يشترك مع الأرنب إلا بـ 70% من الجينات. وهكذا مع جميع النباتات والحيوانات التي تطور منها.

فما هو الدليل البيولوجي على أن الإنسان مر بجميع أطوار الحيوانات التي تطور منها؟

يمر الجنين، كما يؤكد علم الأجنة، في الأسابيع الـ 3 الأولى بهذه الأطوار جميعاً: من سمكة، فحيوان برمائي، فطائر... إلخ.

فماذا يخبرنا علم الأجنة الطبي عن أطوار تطور الجنين؟

1 ـ يلقح حيوان منوي بويضة المرأة، ثم تبدأ البويضة ـ التي لا وجود لها في علم الأجنة القرآني الذي تصور أن المرأة أيضاً لها ماء، أي مني، دافق كالرجل ـ في الانقسام: تنقسم إلى 3 طبقات: الأولى يتكون منها المخ والأعصاب؛ الثانية تتكون منها العظام والعضلات والأوعية الدموية؛ الثالثة تتكون منها الأمعاء والرئتين والكبد. جميع هذه الأعضاء تنمو بالتوازي وليس بالتسلسل الذي تفيده «ثم» القرآنية. اللحم يظهر أولاً. ولا يظهر أول عظم، وهو الترقوة، إلا في نهاية الأسبوع الـ 8 من تكوّن الجنين (انظر د. الجراح كمال النجار، في «قراءة منهجية للقرآن» ص 153...).

خرافة تكوّن العظام أولاً، ثم يكسوها الله لحماً، تكررت مرة



ثانية في تجربة ميدانية أجراها الله نفسه على حمار أمام ناظري صاحبه، : «انظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً» (259، البقرة): الله أعاد خلق الحمار، أمام ناظري صاحبه فكسي عظامه لحماً... ليبرهن لصاحب الحمار على إمكانية العودة إلى الحياة بعد الموت...

«الماء الدافق» الذي تؤكد الآية أننا خُلقنا منه: «وخلقناكم من ماء دافق يخرج من بين الصلب [= الظهر] والترائب [= أضلاع القفص الصدري]» (7، الطارق)، مجرد تخييل لا أساس له في التشريح الحديث، الذي يقدم لنا الخبر اليقين: الماء الدافق، أي السائل المنوي، يتكون في البروستات. أما الحيوان المنوي فيتكون في الخصيتين...

ما يجب التحذير منه، في التربية الجنسية الدينية، هو الأحكام الشرعية أو الآيات أو الأحاديث، التي يترتب عن العمل بها مخاطر للطفل مثل آية: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» (233، البقرة)، أو «وفصاله [= فطامه] في عامين» (14، لقمان). أما مدة الرضاعة الطبية فتتراوح بين 8 شهور وعام. فإذا استمرت بعد ذلك تصبح خطراً على نمو الشخصية النفسية للطفل، التي تصاب بالشلل: «الإبقاء على الطفل رضيعاً أكثر من العام الأول، يعرضه لخطر البقاء في موقف صبياني جداً طوال حياته»، كما يقول الطب النفسي؛ من أعراض الرضاعة لأكثر من عام، رضاعة الراشد لإصبعه حنيناً إلى سن الرضاعة، سن التبعية للأم، والإعفاء من مسؤوليات الاستقلال عنها، والاعتماد الضروري على الذات؛ أو الحديث الذي يرويه البخاري القائل: «لا عقاب على مغتصب طفل، سوى أن أمه تحرم عليه»!



كذلك، ينبغي تفكيك الآيات، التي يُلحق الاعتقاد فيها ضرراً لصحة الإنسان خاصة العقلية، مثل آية: «وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم في النهار، ثم يبعثكم فيه» (60، الأنعام)، أي أن الله يعيد الروح إذا شاء في النهار، أو يقضبها في الليل، فيصبح النائم جثة هامدة! دراسة الدماغ خلال النوم، تثبت أنه يحتفظ بجميع وظائفه الحيوية، وفضلاً عن ذلك يجددها، تنفي قطعاً هذا الزعم: الذي هو استعادة لأسطورة بدائية، كما يؤكد الأخصائي في الأساطير، مرسيا إلياد، تقول: روح النائم تفارقه إلى عالم آخر للقاء أرواح الأسلاف. فحيناً تفضل الإقامة معهم وحيناً تعود لصاحبها!

التأكيد على أن الحرية الجنسية حق طبيعي، من حقوق الإنسان، لا تفريط فيه. يشهد لذلك الواقع العالمي اليوم؛ معظم الدول المتحضرة اعترفت ببراءة جميع الممارسات الجنسية، في إطار القانون الوضعي العقلاني، الذي يبيح الجنس بين الراشدين الراضين. وحدها دول أرض الإسلام، ما زالت رهينة أخلاق القرون الوسطى، الحرمانية والقمعية، في ممارسة الجنس بين الراشدين الراضين؛ باستثناء تركيا الإسلامية، التي أجهزت، منذ دستور 2006، على رواسب العقوبات الشرعية في تركيا العلمانية: فألغت عقوبة الزنا والمثلية واعترفت للمسلم بحقه في تغيير دينه. فغدت بذلك قدوة حسنة لجميع النخب الإسلامية القادرة، نفسياً وذهنياً، على معاصرة قيم وحقائق عصرها.

توضيح الفرق بين الحياة الجنسية الحيوانية والنباتية [اعترف بها العلم منذ ق 18] والحياة الجنسية البشرية: هدف الأولى هي الإنجاب حصراً؛ وهدف الثانية هو الاستمتاع الجنسي أولاً. أما الإنجاب فنتيجة طبيعية لغريزة بقاء وتجديد النوع. لذلك، كان بإمكان الشريكين



تفاديه، عندما يتفقان على ذلك، سواء بالواقي الذكري، أو بحبوب منع الحمل، أو بالإجهاض الطبي.

غالباً الحيوانات الثديية لا يقترن فيها الذكر بالأنثى إلا في موسم الغُلمة [= فترة نشاط الثدييات الجنسي، التي تسعى خلالها الحيوانات إلى الاقتران]، ولا يقترن بها إذا كانت حاملاً، أما في النشاط الجنسي البشري، فالجماع متاح للشريكين على مدار العام، حتى أثناء الحمل أو أثناء الحيض. تحريم القرآن للحيض، تقليداً للشريعة اليهودية، ليس له مشروعية علمية، جماع الحائض لا تترتب عليه علمياً أي محاذير صحية؛ والبخاري يخبرنا، عن عائشة، أن النبي كان يباشر نساءه أثناء الحيض!

الرهان الأخير للتربية الجنسية العلمية، هو الصراحة الجنسية. حقائق الجنس العلمية مسكوت عنها، أي يُحظر الحديث فيها بما هي غالباً محرمات دينية، مثل «الزنا الصحي» باتفاق الزوجين كما سنرى ذلك بعد قليل.

أحد رهانات التربية الجنسية العلمية هو الصراحة، بعيداً عن النفاق والحياء المرضي. الطفل والمراهق يريدان معرفة كل شيء عن الجنس. لكنهما قلما يجدان المساعدة، في الأسرة والمدرسة التقليديتين. وعندما يسألان ذويهما الجهلة، يتلقون غالباً جواباً كاذباً أو صفعة، أو هما معاً. طفلاً، سألت أمي: منين جبتيني يا بابا [كنت أناديها، بابا وليس ماما بما هي، في لاشعوري، أمّ قضيبية. في 1981 رأيت، وأنا بين نوم ويقظة، قضيبها وخصيتيها]؟ من قبضي، أجابت. لم أفهم وما زلت لا أفهم معنى قبضي [ربما كنّت به عن فرجها]، فسألتُها: واش هو قبضي؟ فصفعتني! منذ ذلك اليوم لم أطرح عليها،



ولا على سواها، سؤالاً في الجنس، جاعلاً رغبتي الجنسية دليلي الوحيد. ذات يوم، كنت في كوخ الدجاج، فجأة دخلت خالتي، فظبطتني متلبساً بجريمة الاقتران بدجاجة. دارت على عقبيها قائلة، لطفل عمره ربما كان أقل من 5 سنوات: «الله يسنخك»، أو يمسخك.

أحببت عمتي الوديعة، بدلاً من أمي الهيستيرية، التي عاملتني بقسوة خاصة، قياساً بأخي الأصغر، سواء بالدعاء أو بالتأنيب والتذنيب، أو بالضرب... كانت تقول لي، وأنا بالتأكيد دون الرابعة، : «علاش ما متش ويبقوا لي بناتي يساعدوني على هم الدنيا»، وتأمرني بأن أمسك بمقبض الرحى لطحن الحبوب لإعداد خبزنا اليومي. ذات يوم، فقدت حب عمتي. كانت تسكن، على بعد 10 كيلومتر من كوخنا، قصراً في حالة خراب، كان يسكنه مالك عقاري كبير، دخلت عمتي الغرفة غير المسقفة، المخصصة لعنزاتها، فوجدتني مقترناً بعنز. انتصبت أمامي، وكانت عادة تمشي منحنية، لون وجهها لم يعد كما كنت أعرفه: «صار انت هكا [= هكذا] ماعادش نامنك على بناتي، ارجع لأمك». وددت لو أن الأرض ابتلعتني، كما كنت أتمنى ذلك عندما كانت أمي، وأنا بعد في الطفولة الباكرة، تحاكمني أمام الجيران: علاش فعلت كذا وكذا... لم أعد أذكر «الجرائم» التي أُحاكم عليها!

أحسست أن شيئاً ما قد انكسر بيني وبينها، لم أعد أطلب من عمتي أن تحك لي ظهري حتى أنام، أو تساعدني على فلي القمل... ذات ليلة كنا، هي وابنها وبناتها وأنا، متحلقين حول قدر العشاء، وكنت أتحدث كعادتي بصوت عال متبجحاً... ناسياً تماماً ما حصل. فإذا بها تنقض عليّ فجأة: «اسكت وإلا طلّعت فيك عارة الصيف».



سكت خلال السهرة كلها وتعشيت بلا شهية، ومن حسن حظي أن ابنها وبنتيها لم يسألوها عن هذه «المارة».

رحل مؤدب القرية، الذي يسمى في مصر سيدنا، فعدت إلى كوخ أمي. وكلما زارتنا عمتي ورأيتها قادمة على البغلة، سارعت بدفن نفسي في كوم القش، المحاذي للكوخ، عميقاً حتى لا تراني. وبعد لحظات قصيرة، أذهب لأسلم عليها بسرعة ثم أتوارى.

لو حدث هذا في سن الـ 25 عاماً، عندما بدأت تربيتي الذاتية الجنسية، لحاولت أن أشرح، والابتسامة على شفتي، لخالتي وعمتي أن الاقتران بالحيوان مباح شرط ألا يؤذيه، ولأخبرتهما أن الاقتران بالحيوان مارسه أطفال وراشدون على مر العصور وما زالوا، وأن النحاتين والرسامين خلدوا مشاهده منذ مئات السنين. ولم أكن لأبالي كثيراً إذا لم يقتنعا، فلم أعد أقيم وزناً لرأي الآخرين خاصة في الجنس؛ حسبي أني فعلت ما أشارت به عليّ غريزتي، ربما لانعدام البديل، بالنسبة لطفل ريفي.

ضرورة الإجابة عن أسئلة الأطفال

ضرورة الإجابة الصريحة عن أسئلة الأطفال الجنسية، مع مراعاة قدرتهم الذهنية على الاستيعاب. وخاصة على سؤال الأسئلة: من أين ولدتيني يا ماما؟ بإمكان الأم المستنيرة بتربية الأطفال العلمية، أن تقدّم له أمثلة من بيئته مثل اقتران القطط أو الحمام مثلاً. السؤال الثاني، المسكوت عنه عند الأطفال الذكور، هو حجم القضيب. الإجابة تتطلب الإحاطة بمعلومات جنسية موضوعية، وعلمية ونفسية، صريحة كفيلة بتلطيف قلق الخصاء، خاصة عند الطفل والمراهق.



جان بول سارتر قال في سيرته الذاتية إنه بدأ يقيس قضيبه منذ سن الـ 6 سنوات متنافساً مع ابن عمه. لكن: «ابن عمي كان يغش بتمطيط قضيبه» ليفوز في المنافسة. شخصياً لا أذكر متى بدأت في قياس قضيبي. . . لكن بالنسبة لمعظم الأطفال والمراهقين، كان قياس القضيب يومياً تقريباً هو هاجسهم، كرد فعل عن قلق الخصاء الذي ينتاب الطفل في الطور الأوديبي ثم يعاود في بداية المراهقة. من الضروري إعطاؤهم معلومات علمية عن موضوع اهتمامهم الأساسي. وإليكم هي، لاستخدامها في التعليم والإعلام والتربية العائلية أيضاً: حجم القضيب، حسب الإحصائيات الجنسية، يتراوح بين 5 سنم في الحد الأدنى، و25 في الحد الأقصى. أغلبية الأحجام لحوالي 75 % من الرجال تتراوح بين 9 و12 و15 سنم. نسبة الـ 25 % الباقية، تتقاسمها تقريباً بالتساوي الأحجام بين 5 و9 وبين 16 و25 سنم. وبالمناسبة، رحم المرأة أيضاً يتراوح بين 9 و12 و15 سنم، لماذا؟ ليس بالطبع لحكمة إلهية؛ بل بكل بساطة، نتيجة قانون التطور. عمر الإنسان، منذ انفصاله عن ابن عمه الشامبانزي، هو 7 ملايين عام. عمر جنسنا «سابيينس» [= الإنسان الحديث] هو 200 ألف عام. وهو النوع الوحيد الذي نجا من ملحمة التطور، أي التكيف مع البيئة والانتخاب الطبيعي، بعد قضائه على الأنواع البشرية الأخرى، التي لم يحتفظ منها إلا ببعض جينات مثلاً 6% من جينات إنسان نيوردارتال.

لم تظهر العائلة تدريجياً إلا مع الاستقرار في قرى، تزامنت مع ظهور الثورة الزراعية منذ 10 ـ 7 آلاف عام. قبل هذا الحدث التاريخي، كانت كل أنثى مشاعة بين ذكور العشيرة؛ حجم القضيب



الغالب، بين 9 و12 و15 سنم، كان الأكثر نكاحاً لنساء العشيرة. وهكذا تكيف الرحم مع هذه الأحجام ـ والتكيف هو سر تطور الأعضاء والأنوع معاً ـ. لكن الأحجام، المتراوحة بين 16 و25 كانت أيضاً تنكح نساء العشيرة ذاتها. وهكذا تكيف الرحم معها أيضاً، بأن أصبح مطاطاً وساعده الحمل على ذلك، والأحجام بين 5 و9 نعثر على أثر تكيف الرحم معها بنقطة الإثارة الجنسية ج الواقعة على مسافة 5 سنم من مدخل الفرج.

الجسد كله، النسائي والرجالي معاً، هو منطقة إثارة جنسية شاملة؛ لكن مناطق الأعضاء الجنسية، عند المرأة والرجل معاً، هي التي غدت أكثر حساسية وإثارة جنسية من باقي الجسد. منطقة الإثارة عند الرجل هي «الكمرة»، أي رأس القضيب. لكن الختان يشوهها بتقليل إثارتهما الجنسية، بتعريتها من الغَلفة؛ ومنطقة الإثارة الأولى عند المرأة هي البظر، هذه «الكمرة» النسائية المتناهية في الصغر: 0,5 سنم. ولكن الختان ـ أو الخفاض بالمطلح الفقهي ـ يشوهها أيضاً بالقضاء عليها كمنطقة إثارة. فالختان إذن جريمة موصوفة، ففضلاً عن تسببه في كثير جداً من حالات البرود الجنسي، يخصي المرأة فلا تعود تشعر بالشهوة إلا بداية من مناطق الإثارة المتبقية الأخرى، إذا لم تصب هي أيضاً، بصدمة الختان، بالبرود الجنسي. علماً بأن المراة تبلغ الرعشية الجنسية بالبظر بعد دقيقتين، مما يتناسب مع الرجال سريعي الإنزال؛ وبالمناطق الأخرى بين 10 و20 دقيقة.

دور القضيب في الجماع وبلوغ الشهوة أو الرعشة 30%. أما الـ 70% الباقية فمصدرها فن الجماع: التقبيل، والعضعضة، واللسان باللحس، والكلام، والكف والأصابع... إلخ.



فن الجماع قلما يتعلمه الشريكان [illegible] المعلومات العلمية، زائد الخبرة، التي يبدأ اكتسابها [illegible] الطفولة والمراهقة. مما يشير إلى فداحة جُرم كبت أو قمع [illegible] الغرامية في الطفولة أو المراهقة.

الرحم يوجد بين المثانة، من الأمام، والمستقيم، من الخلف. عندما يكون ساكناً يتراوح ارتفاعه بين 7 و8 و9 سنم وفي حالة الهيجان، بين 9 و12 و15 سنم، مع قابلية التمطط عند استقبال قضيب أطول أو جنين.

عكس، فانتازم قلق الخصاء، الذي يوحي للرجل بخطر ابتلاع الفرج، بعد الولادة لقضيبه، فإن رحم المرأة بعد الإنجاب يقترب جداً من مدخل الفرج، بحيث يكون في متناول جميع الأحجام. تقديم هذه المعلومات العلمية الأولية للمراهقين يخفف من قلق خصائهم، ويخفف تالياً من عداء المرأة «بلاعة» القضبان، كما يوحي فانتازم المخاوف الجنسية، التي لا مبرر لها في العلم..

الختان

الختان في الديانة المصرية:

نعرف من علم المصريات أن: الختان مارسه المصريون منذ 3400 عام قبل الميلاد. عديد التماثيل المصرية تشهد بذلك: جراح جالس أمام شاب عارياً، وهو يجري هذه العملية على قضيبه؛ والختان هو ثاني عملية جراحية أجراها الإنسان، بعد ثقب الجمجمة، كما تشهد بذلك الجماجم المثقوبة العائدة لعصور ما قبل التاريخ، الختان لم يكن



للعامة، بل للخاصة: فرعون، أمراء البلاد، الكهنة والموظفين، الذين كان الختان فرضاً عليهم. وعلى كل أجنبي يزور فرعون أن يثبت أنه مختون. وهذا ما حصل مع المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت، عندما قُدّم، وهو شيخ هرم، لبلاط فرعون. لماذا مارس قدماء المصريين الختان؟ لا نعلم ذلك يقيناً، لكن يبدو أن ذلك عائد للاعتقاد السائد في مصر القديمة، والقائل بأن روح كل إنسان توجد في أعضائه الجنسية، المرصودة للإنجاب.

بالختان يقدم النبلاء المصريون البيعة والطاعة للآلهة. زيادة على أن اللون الأحمر في الأفق، عند طلوع وغروب الشمس، فسره الكهنة المصريون بأنه انعكاس للدم، الآتي من ختان الإله الشمسي «رع»، الذي كان فرعون هو ممثله الوحيد على الأرض. يقول الدكتور رونيه كوس: «صدّر المصريون الختان للشرق الأدنى والأوسط وأفريقيا وإلى اليهود (...)».

يقول د. وسيم السيسي: «الختان شعيرة مصرية منذ العصر الحجري الحديث، أي منذ 6 آلاف عام ق. م. وكانت السكين من الحجر الصوان هي أداة الختان. وظلت هي الآلة ذاتها حتى بعد اكتشاف النحاس والبرونز؛ وكان للختان شهرة دينية في مصر القديمة. لذلك يمارسه الكهنة داخل المعابد وليس الأطباء. وقد أخذ اليهود عن الديانة المصرية هذه الشعيرة المقدسة في مصر القديمة بحذافيرها: الختان بسكين من الحجر الصوان (...) ولم يكن يُسمح بدخول المعابد في مصر القديمة إلا للمختونين أي المتطهرين [المختونين]. وكلمة حنيف وحنفاء [الواردة في القرآن] كلمة مصرية قديمة، تعني المتطهر الخاضع للإله الواحد، وكلمة ختان مصرية أيضاً؛ ولا شك أن



هذا يعود إلى فترة التوحيد التي فرضها الفرعون أخناتون». قبل اغتياله والعودة إلى وثنية آمون.

الختان في اليهودية:

تقول موسعة «اليهودية» الصادرة بالفرنسية عن دار روبير فلافون: «ختان الذكور في اليهودية يتم في اليوم الثامن من ولادة الطفل، طبقاً للوصية الإلهية، وعلامة على «الحلف الأبدي» بين الله والشعب اليهودي (...) في رواية سفر التكوين (تكوين 17، 13 ـ9) تجلى الله ذات يوم لإبراهيم، وهو في سن 99 عاماً واعداً إياه بحلف أبدي طالباً منه ختان جميع أبنائه الذكور، وختان جميع عبيده، كعلامة على هذا الحلف. أطاع إبراهيم أمر الله، وبدأ بختان نفسه. ثم ابنه إسماعيل وكان عمره آنذاك 13 عاماً. وهكذا أصبح ختان كل ذكر فرضاً، في سن الـ 8 أيام. حتى الضيوف، فرض الله على إبراهيم ونسله ختانهم. وكل من يعتنق اليهودية يجب أن يُختن [للتذكير، القذافي ختن الإمبراطور الإفريقي بوكاسا!] (...)».

فما هو المقابل لهذا الحلف الممهور بدم الختان؟ قال الله لخليله إبراهيم: «أعطيك أنت، وأعطي لنسلك من بعدك، بلد هجراتك [= أرض كنعان أو فلسطين] (...) ملكاً أبد الدهر» (تكوين 17، 8).

ضداً على هذا الختان البدائي بسكاكين الحجر الصوان، أوصى سفر الثنية (6.30 و16، 10): «بختان القلب»، أي ختان روحي لا أثر فيه لدم أو ألم. لكن الختان العنيف هو الذي ساد.

تقول موسوعة اليهودية: «لا وجود لختان البنات في اليهودية».

الواقعة المؤسسة في اليهودية، هي رواية سفر التكوين لخلق



العالم في 6 أيام. أما اليوم 7، فقد كان إجازة أخذها الله بعد عمله الشاق. وفي اليوم 8 استأنف نشاطه كالمعتاد. وهكذا حاكاه البشر. الختان في اليوم 8 هو، على الأرجح، محاكاة لهذه الرمزية. إسرائيل المعاصرة تؤرخ بتاريخ خلق العالم، منذ 6 آلاف عام. محاكاة، هذه المرة للديانة المصرية، يُختن الطفل في البيت أو في أقرب كنيس، كما كان يُختن في المعبد المصري. بالمثل، ختان الضيوف ومنع الغرباء من حضور الاحتفالات الدينية إلا بعد ختنهم، هو محاكاة لختن ضيوف فرعون إذا طلبوا منه استقبالهم.

الختان في المسيحية:

عند الرومان، تشويه الجسد البشري ممنوع؛ لذلك رفضوا الختان في المسيحية؛ فاضطر القديس بولس، الذي كان هو نفسه مختوناً، إلى العودة إلى الختان الروحي: «ختان القلب» في سفر التثنية، أي تطهير القلب. وهكذا أعفى الرومان من تشويه قضبانهم بالختان. أتمنى أن يعود اليوم المسلمون واليهود إلى هذا الختان الروحي لإعفاء فلذات أكبادهم من صدمة الختان.

الختان في الإسلام:

لم يكن الختان معروفاً، أو لم يكن سائداً في الحجاز. استعاره الفقهاء من الشريعة اليهودية، التي استعارته بدورها من الشريعة المصرية الوثنية القديمة، ووضعوا لتأسيس مشروعيته حديثاً يقول: «الفطرة 5 أولها الختان (. . .)» زاعمين أن «النبي ولد مختوناً، ختنته الملائكة في بطن أمه»! لكن الحقيقة التاريخية أن النبي لم يختن



وكذلك صحابته لم يختتنوا؛ ولم يتبنى الإسلام، من المصرية واليهودية ختان الضيوف ولا ختان من يدخلوا فيه، لكن الفقهاء خاصة في عصر الانحطاط، القرن 12 ميلادي، اشترطوا ختان من يدخل في الإسلام، بالرغم من أن سلمان الفارسي وصهيب الرومي لم يأمر نبي الإسلام بختانهما عندما اعتنقا الإسلام.

شخصياً، كان ختاني صدمة ما زلت أذكر كل تفاصيلها، كما لو أنها حدثت بالأمس القريب: قد يكون عمري دون الخامسة، عندما جاء «عم فرج الحلاق»، لختان أطفال أكواخنا الثلاثة، فررت من الكوخ، لحقت بي أمي بعد حوالي 200 متر؛ قلت لها عبثاً، للإفلات من قبضتها: «أنا ماشي لأحمد بن سالم[مالك عقاري كان يعمل أبي عنده] ليطهرني»، في الواقع كنت أريد الاختباء بين سنابل حقل الشعير. أعادتني للكوخ فاختطفني أبي منها، وكان رأسه معصوباً، ورفعني حتى مس رأسي سقف الكوخ المغطى بالقش، وشغّل عم فرج مقص الحلاقة، الذي كان يقص به شعر الفلاحين يوم السوق الأسبوعي، تغطى قضيبي بالبثور، فالمقص لم يكن معقماً، وبقيت ربما أسابيع كثيرة وأنا عاجز عن المشي...

في 1981، خالفت عائلة، في تونس العاصمة، القانون الذي يوجب الختان بالطبيب، فختنت ابنها بالحلاق فمات بالنزيف. كثيراً ما يموت الأطفال المصابون بالهوموفيليا نزفاً، والأطفال المرضى فضلاً عن أولئك الذين يخطأ «الحلاق» في ختانهم فيقطع جزءاً من الكمرة... وضحايا ختان الذكور والإناث كثيرون خاصة في مصر وأفريقيا!

يجوز ختان الأطفال في حالة واحدة فقط هي مرض «ضيق



الغلفة»، فيموزيس، الذي يمنع الكمرة من الخروج.

الختان في القبائل البدائية:

الختان يتم بأكثر الوسائل وحشية وسادية: تنتزع الأم قُلفة قضيب طفلها بأسنانها؛ أحياناً تبتلع الغلفة وأحياناً تدفنها حسب تقاليد العشيرة. في قبائل أستراليا تُجمع القلفات المنتزعة وتجفف وتطبخ كطعام. وفي قبائل البورو، في ليبريا، تأكل الأم قلفة أو غلفة ابنها المختون، ربما كرمز للتماهي بينها وبينه، تحقيقاً للرغبة الخفية في إلغاء التمايز بين الذكر الأنثى: بالعودة إلى حالة الخنثى، التي تخيل أفلاطون أنها أصل النوع البشري.

لا شك أن هذا الختان يؤدي كثيراً إلى وفاة الأطفال، وما زال العمل به جارياً حتى الآن، دونما تدخّل من المجتمع المدني العالمي، أو من الأمم المتحدة لحماية حقوق الطفل؛ كما لو كانت القبائل البدائية تتمتع بحصانة دبلوماسية ضد انتهاك الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل.

ختان الإناث:

قد يكون عادة مصرية قديمة، لكن لا دليل عليها حتى الآن. لكنه شائع لدى القبائل البدائية خاصة الإفريقية، وفي بعض البلدان الإسلامية مثل مصر والسودان.

في مصر شرعنه الفقيه المصري، جلال الدين السيوطي، زاعماً أن ماء النيل يطيل البظر، فيجعل المرأة شبقة أي لهلوبة، لا تكتفي بزوجها لذلك تزني. وهكذا أوجب خفاضها، أي ختانها، باجتثاث



بظرها «الطويل» لردعها عن الزنا. هنا أيضاً ودائماً نلتقي بهاجس الخوف من المقارنة مع رجل آخر، كدافع لارتكاب جريمة ختان البنات فضلاً عن جريمة قتل الزانية.

الختان في التحليل النفسي:

ينطلق علم نفس الأعماق من فرضية أن الختان هو انتقام لاشعوري، للأب من ابنه، رداً على منافسته له في الطور الأوديبي خاصة القصيبي [4,5 سنوات]. هدفه الردع الرمزي بالختان الرمزي، بلا دم ولا ألم، عن التلعق بالأم؛ أو الردع المباشر بانتزاع الغلفة بسكين حجر الصوان أو بالأسنان.

من الممكن حل الأزمة الأوديبية، بوسائل بيداغوجية، حلاً سعيداً يحوّل الحب بين الابن والأم إلى حنان بلا إيحاءات جنسية صارخة. أما التربية الجنسية التجهيلية فلن تجد لها حلاً، بل تعطي غيرة جنونية من الأب، أو من يقوم مقامه، من الابن. مثلاً، شارل بودلير تعلق بأمه، الشابة الجميلة الأرملة، تعلقاً غرامياً؛ فلما تزوجت ثانية ضابطاً جلفاً، عامل المراهق شارل بقسوة، فعاش هذا الزواج كاختطاف لمحبوبته منه. فرد عليه بالتمرد والعجز عن ربط علاقة حب حقيقي سعيد... مما جعله يموت بالزهري، بين أحضان البغايا، في سن الـ 46 عاماً في أحياء «أحزان باريس»، وهو عنوان ديوانه الذي أسس به قصيدة النثر.

وهكذا ففي الشعوب، التي تطورت من الفهم السطحي للنص والواقع، إلى الفهم الأعمق للكلمات والإشارات، يكون الخصاء رمزياً لتيئيس الابن، بوسائل ذكية، من الزواج الفعلي بالأم: «ماما عندما أكبر



أتزوجك» وبابا؟ ترد عليه «ليذهب إلى الجحيم» يجيبها؛ أما في الشعوب البدائية، أو ذات الذهنية البدائية، العاجزة عن ترميز فعل الخصاء، فإنها تأبى إلا أن تترك وشماً على جسد أطفالها: جرح نزع الغلفة، جرحاً جسدياً ونفسياً يغذي في أبنائها قلق الخصاء، أي الخوف الفعلي من اجتثاث القضيب. وهكذا لا يكون خصاء الأب للابن رمزياً، بل حقيقياً كشاهد مدى الحياة على انتقامه الجنوني منه!

تيئيس الابن من العلاقة الغرامية بالأم مشروع. فقد أكد النفساني الفرنسي، جرار ماندل: «اتضح حتى 1970 أن من نكحوا أمهاتهم أصيبوا بالجنون»؛ كما اتضح في 1989 أن الشامبانزي لا ينكح أمه. وسّع الطب اليوم، دائرة الأقارب المحرمين طبياً إلى العائلة الموسعة، كالزواج من ابنة الخال والعم وجميع ذوي القرابة الدموية. إذ إنه يعطي، باحتمالية عالية، أمراضاً وراثية كالتشويه المونغولي والغباء العميق، الذي يمثل في فرنسا 2% وفي تونس مثلاً 20%، أي 2 مليون، هم حوض السمك الذي يبيض فيه ويفرّخ أقصى اليمين الإسلامي وأقصى اليسار الطفولي.

العلم يوسع ويعمق ما هو صالح في الدين، مثل تحريم نكاح المحارم؛ ويفند ويلغي كل ما هو طالح في الدين، مثل الرضاع لمدة عامين كاملين أو اغتصاب الأطفال دون رادع، وأوهام علم الأجنة القرآني...

الختان في الأنثروبولوجيا:

الختان، بين شعائر أخرى، شعيرة أساسية في ثقافة الشعوب البدائية، حيث كل شيء شعائر وكل شيء دين. الختان، مثل شعائر



لينسياسون الأخرى، أي شعائر الانتقال من عالم الطفولة إلى عالم الرجولة؛ أرادت به القبائل البدائية نقل الطفل من عالم الطفولة، عالم السهولة، إلى عالم الرجولة، عالم الخشونة، عالم البأس والحرب والصبر على المكاره.

في أرياف سوريا، الأردن وفلسطين، تثقب الأسرة أذن الابن البكر عند ولادته، وتختنه في بداية المراهقة، 12 ـ 15 عاماً. وهكذا يمر من الطفولة إلى الرجولة. تحتفل الأسرة، ومعها القرية أو القرى المجاورة، بأداء هذه الشعيرة أياماً وأحياناً شهراً أو شهرين، كما يؤكد كتاب «الروح الأخضر»، تأليف محمد مفلح البكر. تبتهل الأم والنساء المتحلقات حولها، للطهار كي لا يؤلم ابنها: «طهّر يا مطهر سلّم الله ايديك/ لا تُوجع الغالي فنغضب عليك».

أداء شعائر الانتقال من الطفولة إلى الرجولة، كالختان، تلعب في القبائل البدائية دور استمرارية عادات وتقاليد القبيلة العتيقة؛ حتى لا تنقطع العلاقات بتراث الأسلاف، بالشعائر: نختن كما كان الأسلاف يختنون. هذا هو سلاح القبائل البدائية ضد التطور والتجديد، الحاملين لـ«مخاطر» نقل القبيلة من التوحش إلى التحضر، أو من العمران البدوي إلى العمران الحضري، بمصطلحات ابن خلدون.

قرأت مؤخراً «بحثاً» لكاتب اسلامي، يدعي فيه أن الأنثروبولوجيا مهمتها الدفاع عن ثقافات الشعوب غير الأوربية، المهددة بـ«الغزو الثقافي الغربي». هذا الادعاء هو جهل أو تجهيل بوظيفة الأنثروبولوجيا.

أوضحت، في المكان المناسب، وظيفة الأنثروبولوجيا الدينية، ولا بأس من أن أوضح هنا وظيفة الأنثروبولوجيا العامة: هي بحث،



مكتبي أو ميداني، لمعرفة الإنسان بما هو مواطن عالمي، معرفة بواعث ومكونات عاداته الثقافية، مثل شعائر الزواج، الختان والدفن مثلاً. فضلاً عن معتقداته وأفكاره الأخرى، التي يسترشد بها في حياته اليومية، ويتعامل بها مع مواطنيه ومعاصريه، كما لو كانت حقائق مقبولة من الجميع وفي مصلحة الجميع: لكن المعارف الأنثروبولوجية تساعده على اكتشاف: كيف أن الأشياء، التي يعتقد الإنسان جازماً، بأنها «بديهية وطبيعية تتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها»، هي في الحقيقة تأليف، أو بما هو أوضح، فبركة ثقافية، وظيفتها تمويه الواقع الموضوعي برغبات ذاتية، أو مصالح أنانية، أو أوهام دينية أو تقليدية. الأنثروبولوجيا تساعد ضحايا الأحكام المسبقة على تحليل الآليات الذهنية الخفية، التي ألهمت هذه الأحكام الخاطئة، أو تكمن وراء السلوك الثقافي المتحيز لأصحابها. مثلاً، أحد هذه الأحكام المسبقة، هو أن اللامساواة بين الرجل والمرأة هي جوهرانية، أي أزلية، خاصة عند أقصى اليمين الديني أو السياسي المعادي للمرأة. لكن مجهر الأنثروبولوجيا يكشف أن هذا التفاوت بين الجنسين ليس جوهرانياً، بل هو ثقافي وتاريخي. إذن كل ما هو تاريخي له بداية وله نهاية. التفاوت بين الجنسين حيلة ثقافية، واعية أو غير واعية، وليس قدراً إلهياً، كما يقول المتدينون، ولا حتمية بيولوجية، كما يقول أقصى اليمين الغربي.

استشهد صاحب «البحث» بأن غالبية النساء، في مصر مثلاً، ترفض ما يطالب به لهن «الليبراليون والعلمانيون والمتغربون»؛ هذا صحيح. لكن الأنثروبولوجيا تعري سر ذلك: هؤلاء النسوة «استبطن رأي جلادهن فيهن»، كما أكد السوسيولوج بيير بروديو. البرهان على أن تفوق الرجل على المرأة ليس حتمية، ما نعاينه في البلدان،



المتحضرة أو السائرة على طريق التحضر، حيث المرأة تتمتع بالمساواة في حقوق المواطنة الكاملة مع الرجل: لها ما له وعليها ما عليه؛ فهي عاملة باليد أو بالفكر، وهي وزيرة دفاع، في الدنمارك مثلاً، ورئيسة حكومة ورئيسة جمهورية.

هذه المكاسب الحداثية التي تحققت للمرأة في العالم المتحضر، يناضل اليوم أكثر النساء وعياً، مع أنصار المرأة، لتحقيقها في المجتمعات الإسلامية، المحكوم عليها بأن تصبح هي الأخرى في المستقبل المنظور، مجتمعات مساواة كاملة في الحقوق والكرامة بين الجنسين.

الرهان الأنثروبولوجي هو على تغيير الذهنيات وأساليب التفكير العتيقة، المنحدرة من ليل التاريخ، والتي وجدت في الخطاب، التعليمي والإعلامي خاصة الديني، أداة مثالية لحشو ولغسل أدمغة ضحاياها من النساء، والأطفال والشباب بالأساطير المعادية لهم فتشربوها. وها هم الآن تمردوا، أو بصدد التمرد، عليها: إيران نموذجاً.

الزواج

من مهام التربية الجنسية العلمية الجوهرية توعية الناشئة، إلى نهاية المرحلة الثانوية، بحقائق علوم النكاح، الطب وعلم النفس، في جميع المسائل المسكوت عنها في الجنس، أو المتحدث فيها بطريقة خرافية مجافية لحقائق العلم وحقائق النفس البشرية. مثلاً الزواج، الجدير بهذا الاسم، هو الزواج الذي يتطلب بالضرورة توفر شروط أساسية منها:



1 ـ أن يكون زواج حب. لقد أوضحت الدراسات العلمية أن الزواج بالخاطبة، أو زواج المصلحة أو الزواج المفروض، يكون كثيراً وغالباً الممزق الأول للأسرة بالنزاعات الزوجية، وكارثة على صحة الطفل النفسية والجسدية. لماذا؟ لأن طفل الزواج من غير حب، يكون غالباً غير مرغوب فيه، شعورياً أو لاشعورياً، على صورة الزواج الذي أنجبه. والحال أن تمتع الطفل بحب الأبوين منذ الشهور الأولى لحمله، إلى يوم ولادته، وعلى امتداد طفولته ومراهقته، يجعل منه راشداً واثقاً بنفسه. والثقة بالنفس هي وقود دخول معترك الحياة، والخروج سالماً من جراحه التي لا مفر منها. الطفل الذي حُرم حب الأبوين أو أحدهما، غالباً ما يكابد طوال حياته عللاً لا تحصى. مثلاً يؤكد الطبيب النفسي، دافيد شرايبير، في كتابه «ضد السرطان»: «من حُرم من حب الأم يصاب بالسرطان». ربما كانت هذه هي حالتي أنا أيضاً!

2 ـ وأن تسبق زواج الحب علاقات جنسية قبل الزواج. لماذا؟ لأن التوافق الجنسي بين الشريكين شرط شارط لحياة زوجية سعيدة. وهو ما لا يتوفر في أنماط الزواج التقليدية المفروضة بقوة العادات الميتة والمميتة لغرائز الحياة، والتفكير الإبداعي.

يوجد اليوم في البلدان المتحضرة علناً، وفي البلدان الإسلامية سراً، «زواج العازبين والعازبات»، الذي يمارسون فيه الحب، بين الراشدين الراضين، بجميع أشكاله الغيري منها والمثلي. هذه الممارسات، خارج عش الزوجية، شائعة أيضاً في المجتمعات المغلقة، مثل المجتمعات العربية الإسلامية التي ما زالت تحت وصاية الفقهاء، لكنها تتم تحت طائلة الخوف من سيف القانون الذي يجرمها وسيف الدين الذي يحرمها.



تحريرها، بالتربية الجنسية العلمية، من التجريم والتحريم، ومن مشاعر العار والذنب سينقذ عشرات الملايين من الأمراض الجنسية الناتجة عن ممارسة الجنس خفية، والتي كان بالإمكان تفاديها في مجتمع مفتوح، كما ينقذ أطفالهم من كل ما يكابده الأطفال غير المعترف بهم قانوناً.

الزنا الصحي

عوقبت الزانية، على مر العصور، بأكثر العقوبات سادية: تقتل غرقاً في الديانة البابلية، تُعطى للكلاب المجوّعة في الديانة الهندوسية، وكانت تُرجم حتى الموت في الديانة اليهودية إلى تاريخ 70 م، تاريخ تهديم الهيكل، حيث توقف الرجم. ولكنها، لتعاسة حظها، ما زالت تُرجم في أرض الإسلام!

الدافع النفسي للارتكاب جريمة حد الزنا، في الديانات الوثنية والتوحيدية، هو خوف الزوج اللامعقول، من مقارنة زوجته له برجل آخر، يتوهم، تحت تأثير قلق الخصاء، أنه أكثر فحولة منه! الأمثال والنوادر الشعبية مرآة للشخصية النفسية الجمعية؛ نادرة مصرية دالّة بهذا الخصوص: قيل لصعيدي زوجتك تخونك بعد ذهابك للعمل. فقال لزوجته بأنه سيتغيب عن المنزل، ثم كمن غير بعيد من فراش الزوجية. وبينما كان العشيق يجامعها سألها: مين الفحل فينا؟ أنا ولا جوزك؟ فردت: ما تجيش في كعب أبو محمد. خرج أبو محمد من مكمنه وهو يرقص على رجل واحدة صارخاً: أصيلة يا بنت الحلال!

المهم، في أعماق النفس البشرية، ليس الخيانة الزوجية في حد ذاتها، بل كسب رهان المقارنة مع العشيق.



عكساً للمجتمعات المغلقة التي تنتهك حقوق الإنسان بلا رادع، استطاع الفرد المستقل، الذي يختار قيمه بنفسه طبق شريعة العقد، في المجتمعات المفتوحة، أن يبتكر أنماطاً من العلاقات الزوجية أكثر عقلانية وإنسانية. مثلاً اتفق عشرات ملايين الأزواج، في الولايات المتحدة وأوربا، على عقد سمّوه عقد «الزنا الصحي»، أي الذي يتم باتفاق الشريكين لكسر روتين الحياة الزوجية المضجر.

أثبتت دراسة أنجزها احد أطباء الأمراض النفسية والعصبية في الثمانينات، بمستشفى صال بيتريير الباريسي، أن المساكنة الطويلة بين رجل وامرأة، تحرك في لاشعور الزوج ذكرى مساكنة عتيقة بين الطفل والأم. كيف كانت العلاقة بينهما؟: حب أفلاطوني، أي حنان بلا متعة جنسية. والحال أن هذه المتعة الجنسية هي المقوّم الأول من مقومات الزواج السعيد.

في 1989، قرر الرئيس ميتران إصدار قانون بغلق جميع المواخير في فرنسا، لأنه اتضح أنها أحد أسباب انتشار الإيدز. لكن سرعان ما فسر له علماء اجتماع فرنسيون خطورة هذا القانون قائلين: الإحصاءات منذ ربع قرن، تبرهن على أن غالبية رواد المواخير هم من الأزواج وليسوا من العازبين. غلق المواخير قد يتسبب في ازدياد تفكك العائلة. فعدل عن عن إصدار القانون. لماذا أغلبية رواد المواخير من الأزواج؟ لكسر روتين الحياة الزوجية، يجامع الزوج البغي ويقدم لزوجته، رمز أمه، بدلاً من الجماع، الحنان والهدايا. بهذه المناسبة أذكّركم بإحدى مرويات «ألف ليلة وليلة»: غارت زوجة من كون زوجها يستخدم قوادة لتجلب له البغايا بدلاً منها. ذات يوم قالت للقوادة: خذيني لزوجي وقولي له إنني من عائلة كبيرة، ولا أريد لا رؤيتي ولا سماع صوتي



حتى لا أفتضح. فقبل الزوج الشرط وجامعها في الظلام. فتحت الزوجة النافذة فرآها فقال لها «ما أحلاكي في الحرام».

أثبتت الدراسات السيكولوجية والسوسيولوجية أن المساكنة الدائمة تخلق العدوانية المجانية التي طالما قوضت استقرار ملايين الأسر؛ يمكن، بنزع فتيل قنبلة الانفجار السكاني، إيجاد حل معقول لهذه المشكلة.

على التربية الجنسية العلمية أيضاً أن تقدم أوسع المعلومات عن الحياة الزوجية خاصة والجنس عامة. مثلاً عن «الاتحاد الحر» أو «الحب الحر»، يبدو أن من دشن هذا النمط من الزواج هما الفيلسوفان، جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار، في النصف الأول من القرن الماضي. كان سارتر يعشق مثلاً «ألجا»، بطلة مسرحيته «الأيدي القذرة»، وكانت سيمون تعشق شقيق عشيقته. كما مارست الحب مع ألبير كامو، خصم سارتر الفلسفي والسياسي، بعلم هذا الأخير ورضاه! فقد تعاقدا قبل هذا الاتحاد الحر على الزنا الصحي وعلى عدم الإنجاب. فمليارات البشر ينجبون نيابة عنهم. ولا أحد بإمكانه أن ينتج أفكارهما بالنيابة عنهما.

الفرد الحر والمستقل، غير قابل للاستبدال. وحده، العضو المذوّب في الأمة، الذي ما زال رقماً، وما زال قابلاً للاستبدال كفردتي الحذاء.

الاستمناء

ممارسة الاستمناء كونية، خاصة في الطفولة والمراهقة وحتى أبعد. لكن الأوهام الدينية فخختها بأساطير مخيفة. في الكتاب



المقدس العبري، حكم الله بالموت على أونان، لمجرد أنه فضل الاستمناء على جماع زوجة أخيه، التي فرضت عليه تقاليد القبيلة الزواج منها بعد موته! زيادة عن اللعنة الإلهية، تسبب هذه الممارسة، في الأساطير الدينية وغيرها، أمراضاً جسدية وعقلية: هزال، ضعف عام، تأتأة، ذهول وجنون وحشد من الأكاذيب الأخرى؛ في محاولة، لردع الشباب عن الاستمناء. قال لهم أطباء العصور الوسطى، إلى منتصف القرن التاسع عشر، بأنهم بالاستمناء يفقدون نخاعهم الشوكي، وأن عملية استمناء واحدة تساوي 5 لتر دم. كما أن الاستمناء، في الرواية الدينية، مؤذي للشاب فهو أيضاً مؤذي للفتاة. فهو مسؤول زعماً عن سرطان عنق الرحم! أحد الأطباء نصح الآباء بربط أصابع الأطفال ليلاً لمنعهم من اقتراف «جريمة» الاستمناء. كما يقول الطبيب الفرنسي ج. س. بيل.

على التربية الجنسية العلمية أن توعي الأطفال، منذ المرحلة الأولى للتعليم بل وحتى منذ الحضانة، بحقائق العلم عن الاستمناء. إذ اتضح أن الرضيع يمارس الاستمناء أيضاً خاصة عندما يوضع في الماء الدافئ لتنظيفه. وفضلاً عن ذلك، أن يعرف الأطفال والمراهقون أن بإمكانهم ممارسة الحب مع أطفال أو مراهقين آخرين من نفس الشريحة العمرية.

تبرئة الاستمناء، من هذه الأكاذيب الطبية الهاذية، واجب تربوي لتحرير الأطفال والمراهقين وبعض الراشدين من مشاعر الذنب، والخطيئة، والندم، واحتقار الذات، والإصابة «بعصاب الفشل». يبدو أن نابليون بونابرت مصاب بعصاب الفشل الذي كان سبب هزائمه، كان في طفولته ومراهقته ضحية الأحكام المسبقة ضد الاستمناء.



في أمريكا وأوربا، يمارس الاستمناء، حسب الإحصائيات العلمية: 92% من الذكور و62% من الإناث. تبرئة الاستمناء، في المجتمعات المتحضرة، وصلت إلى درجة أن أطباء علم النكاح، ينصحون النساء المحرومات من الجنس أو الباردات جنسياً، بالاستمناء كبديل عن الحرمان، الذي هو المرض الحقيقي، الذي يسبب غالباً أخطر الاضطرابات النفسية بما فيها الجنون. وصدقاً قال النفساني الفرنسي الصديق، فيليكس جواتاري،: «التناقض ليس بين حب المغاير وحب المماثل، بل التعارض هو بين الحب والحرمان». أما فقهاء الحرمان، في أرض الإسلام، فما زالوا يغشون الشباب بالحديث القائل: «من لم يستطع الزواج، فعليه بالباءة»، أي عليه بقتل جسده في ربيع العمر! علماً بأن نبي الإسلام لم يعصي يوماً رغبته في ممارسة الحب، ضداً على شريعته التي أباحت 4 زوجات فقط، جمع بين 11 زوجة و4 نساء وهبن أنفسهن له فضلاً عن ملك اليمين!

تربية جنسية تتخذ دليلاً لها في متاهة الحياة الجنسية، حقائق العلم ومبادئ حقوق الإنسان، كفيلة بجعل الأجيال الطالعة تمارس الحب بين الراشدين الراضين جهاراً بافتضاح. ألم يقل شاعر الخمر والحب، أبو نواس، لنديمه: «أحسن اللذات ما كان جهاراً بافتضاح»؛ أو:

ألا فاسقني خمراً وقل لي: هي الخمر

ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ

هكذا تكون ممارسة الغرام، المهتدي بالعلم والعقل، أو لا تكون.

بالإعلام والتعليم والخطاب الديني المستنير، بإمكان البشرية، في أرض العروبة والإسلام، أن تغير ذهنياتها ونفسياتها لتغيير سلوكياتها.



رهان الإصلاح الديني الكبير، بل كل إصلاح في أي مجال كان، هو تغيير الذهنيات والنفسيات. في القرون الوسطى، حيث كان تطور العلم والتكنولوجيا بطيئاً، كانت الذهنيات والنفسيات، أي العادات والتقاليد الدينية والدنيوية، تتغير خلال عشرات السنين وأحياناً القرون. أما اليوم، بفضل تسارع التاريخ، أي تقدم العلم والتكنولوجيا بسرعة غير مسبوقة، فالذهنيات والنفسيات تتغير في وقت قياسي. بالإمكان إذن تحديث ذهنية ونفسية أمة خلال جيل (25 عاماً).

بالمناسبة أريد شرح إشكالية طالما سألني بعض الأصدقاء عن تفسيرها: لماذا في الدول الدينية، كإيران والسودان والسعودية، ترى التربية الدينية، الجنسية والعامة المكثفة، التي جعلت كل شيء ديناً أي محرماً، تعطي عكس المطلوب منها. مثلاً، في عهد الشاه، كان الطالب والطالبة، المتشربان لأخلاق الحشمة التقليدية، لا يمارسان عادة الحب إلا بعد 3 شهور من التعارف. أما منذ تأسيس الدولة الدينية، فقد أصبحا يمارسانه غالباً من أول لقاء؛ وتحولت المساكن في المدن الإيرانية إلى حانات ومواخير ومراقص تُنتهك فيها المحرمات الدينية؛ بالمثل، في ميدان العقيدة تقلصت ممارسة الشعائر الدينية إلى مستويات غير مسبوقة، وبلغت نسبة الملحدين، إلى سنة 2009، رقماً قياسياً عالمياً: 30% من مجموع السكان! أما في السعودية والسودان فقد أعطت كراهية نادرة للشريعة، لذلك أسباب أهمها، في نظري، كون التعليم الديني مضاداً لغرائز الحياة المتجذرة عند الأطفال والمراهقين والشباب. هذه الغرائز التي لا ترضى عن تحقيقها بديلاً؛ ولأن هذا التعليم يسبح ضد تيار الحقبة التاريخية، الذي ينسف كل يوم المزيد من المحرمات الدينية الغبية، وأخيراً،



يُسقط الشباب كراهيتهم للحكومة الدينية على كل ما تقوله أو تفعله. وباختصار، يعرّفون أنفسهم بعكس حكوماتهم الغبية والمستبدة. تاريخياً، كل حكومة دينية كانت غبية ومستبدة. لأنها لا تستنير بنور العقل، الوحيد القادر على هداية صناع القرار إلى سواء السبيل.

بإمكان أفكار ومبادئ التربية الجنسية خلال جيل، تعديل، وتصحيح، أو إلغاء الأفكار، والعادات والأحكام المسبقة المزروعة في التربية الجنسية الدينية أو التقليدية. ما الهدف من ذلك؟ لتمكين الفرد، في أرض العروبة والإسلام، من تحقيق رغباته العاطفية وغرائز الحياة فيه بلا شعور بالذنب. رهان التربية العلمية إشعار الطفل بأنه محبوب من أبويه أو من يقوم مقامهما. كيف؟ عندما لا يُذنّب المربي الواعي لهذا الرهان حركاته وسكناته خاصة الجنسية. مراراً كنتُ شاهداً، في تونس، والجزائر ولبنان، على أطفال في سن باكرة يتعرّون أمام أمهاتهم وضيوفهم، كرغبة طفولية غريزية في استعراض الفرج ولفت الانتباه، فيكون الرد: «عيب»، وأحياناً، خاصة من الأب، صفعة!، وهكذا تزرع التربية الجنسية الظلامية، أي غير المستنيرة بنور العقل والعلم، بذور الشعور العصابي بالذنب في نفسية الطفل؛ هذا الشعور الذي يشعره بأنه غير محبوب فيهدم طوال حياته تقديره لذاته، واعتزازه بذاته وثقته في ذاته، التي تشكل جميعاً مقومات الحياة السعيدة.

الشعور بالذنب، جرّاء انتهاك محرم ديني، سرعان ما يستولي على النفوس العطوبة بعد إنهاء الجماع. وقد يدفع الشريك الأقوى، الرجل غالباً، إلى العدوان لفظياً أو جسدياً على شريكه، قد يصل أحياناً إلى القتل: «يا بنت الحرام، يا ابن الحرام، ورطتني في معصية الله في هذا الشهر الفضيل» ثم ينهال شتماً وضرباً على ضحيته!



كما أن على إصلاح الإسلام، بدراسته وتدريسه بعلوم الأديان، أن يتخذ من العقلانية منطلقه ومن الحداثة رائده. بالمثل، على إصلاح التربية الجنسية أن يتخذ من العلم، علم النكاح والطب وعلم النفس، منطلقه ومن الحرية الجنسية غايته.

فما هي أساسيات التربية الجنسية العلمية؟

هي أساسيات الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والوثائق المكملة له: من حق كل إنسان أن يتصرف في جسده: يمارس به ما يحلو له من ألوان الحب بين الراشدين الراضين. في الحداثة، لم يعد الدين أو التقاليد هو من ينظم العلاقات بين الأفراد المستقلين في صنع قرارهم، بل حل العقد بين الأفراد محل الدين في تنظيم هذه العلاقة.

كما أن العمل والفكر الرمزي [= الديني] طورا القرد إلى إنسان، كما يؤكد الأخصائي، ايف كوبنس، بالمثل، فإن الاعتراف بالحق في الحرية الجنسية للجميع بمن فيهم الأطفال الراضين، من جميع الأعمار، إذا ما مارسوا الجنس فيما بينهم، كفيل بتحويل الحيوان الفظ، الذي يؤنب ويذنب الأطفال، ويسجن ويجلد ويرجم الراشدين الراضين، إلى إنسان لطيف ومتفهم، ومتحرر من المخاوف الجنسية والدينية اللامعقولة، التي تدفعه قهرياً إلى قمع الحرية الجنسية، واضطهاد ممارسيها والمدافعين عنها، مثلما هي الحال خاصة تحت «سيف وقرآن» الحكومات الدينية.

في جزيرة مورا، الآباء يشجعون أطفالهم ومراهقيهم على التدرب على ممارسة الحب بين بعضهم البعض. قرار حكيم، لأن الجنس يحتاج إلى العلم والخبرة أيضاً.



وصيتي للأجيال الطالعة: اعملوا كل شيء للحصول على معلومات جنسية موضوعية تساعدكم على تحقيق ميولكم الجنسية، بلا عقد ولا شعور بالذنب. لهذه الغاية، كتبت لكم هذه الحلقة، ربما غير المسبوقة في صراحتها وطرافة حقائقها عسى أن يفوز المواطن في أرض العروبة والإسلام بـ«الحق في السعادة»، المنصوص عليه في دستور الولايات المتحدة الأمريكية.



هذا الكتاب

الفوضى اليوم تعني أن يصبح العالم، وكل بلد فيه، غير قابل للحكم. فاختاروا إذن الإصلاح الديني، كمدخل للإصلاح الشامل السياسي، والاقتصادي، والعلمي، واللغوي والتربوي. الإصلاح الديني هو اليوم المدخل لقطع الطريق على هجوم الجنون في التاريخ، على تحويل المؤسسات التعليمية والإعلامية إلى منابر للتكفير والفتاوى، المضحكة حيناً والمُبكية حيناً، وعلى تحويل المستشفيات إلى مسالخ لقطع الأيدي، وتحويل الساحات العامة إلى أمكنة يتبارى فيها المصابون بالطاعون العاطفي على رجم المحبّين، وشنق المفكّرين الأحرار، وتحويل عواصم أرض الإسلام إلى أكثر من طهران، يصطاد فيها «حراس الثورة» الشباب الجامعي كما يصطادون الأرانب.

العفيف



